القدوة الحسنة في ضوء القرآن الكريم

إعداد

د. ناصر بن محمد بن عبد الله الماجد

د. ناصر بن محمد بن عبدالله الماجد

- أستاذ مساعد بقسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- حصل على درجة الماجستير في القرآن وعلومه من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بأطروحته: (عادات أهل الجاهلية - دراسة موضوعية في ضوء القرآن الكريم).
- حصل على درجة الدكتوراه في القرآن وعلومه من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته: (أحكام القرآن للقاضي بكر بن العلاء القشيري، من أول سورة الأنفال إلى آخر القرآن – دراسة وتحقيق).

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران:١٠٢]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء :١]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠]،،، أما بعد:

فإن القرآن الكريم هو كلام الله المنزل، ودستور الإسلام الجامع، وآية الرسول العظمى، ومعجزته الكبرى، أحيا الله به قلوباً غلفاً، وبَصَّرَ بهداياته أعيناً عُمياً، وفتح بآياته آذاناً صمّاً، جمع الله به هذه الأمة من شتات فُرْقَتها، وَوَحَّد مِزَق صفها، وآلف في محرابه أرواحها، وطهَّر قلوبها، وزكى نفوسها، وأقامها على سنن الفطرة، فكانت خير أمة أخرجت للناس.

وفي هذا القرآن الكريم قص الله تعالى قبساً من سير الأنبياء والصالحين، وعِبَراً من ذكر الأولين، نماذج يُقتدوى بها، وأسوة يُعتبر بها.

والمجتمعات البشرية اليوم بأمسّ الحاجة إلى وجود قدوة حسنة، تهديها طريق النجاة، في ظل الانحراف الذي نراه في اتخاذ القدوات، ولا أهدى سبيلاً، ولا أسد طريقاً من الرجوع إلى السراج المنير، إلى كتاب الله الكريم، لتَرسُّمِ معالم القدوة الحسنة فيه، وتبين منهج القرآن الكريم في

عرض مجالاتها، وذكر نماذجها، ومعرفة الصفات التي أهلت أهلها ليكونوا أسوة للناس يقتدون بهم.

هذا من جانب، ومن جانب آخر؛ فإن وجود القدوة الحسنة من أنجح الوسائل المؤثرة في إعداد الفرد وتكوينه نفسياً، واجتماعياً، وأخلاقياً، وهي عامل كبير في صلاح المرء واستقامته.

إنه ليس من العَسِرِ أن يضع المربون منهجاً ما، ولكن من الصعب أن يتحقق ذلك المنهج واقعاً معاشاً؛ إذا لم يكن هناك أفراد يطبقونه ويعملون به، بحيث يراه الناس ماثلاً أمامهم، ويحسون به واقعاً مشاهداً يقتدون به.

ولهذا فقد استعنت الله تعالى في دراسة القدوة الحسنة، سعياً للإبانة عن منهج القرآن الكريم في عرضها، مترسماً فيه معالمها، واقفاً على صفات أهلها، محدداً مجالاتها، ضارباً نماذج لها، وأسميت هذه الدراسة:

القدوة الحسنة في ضوء القرآن الكريم.

وجعلتها مكونة من ثلاثة مباحث، قدمت لها بمقدمة، وأنهيتها بخاتمة ضمنتها أهم نتائج البحث، على النحو التالي:

المقدمة: أشرت فيها إلى أهمية البحث، والخطة التي أتبعها فيه.

المبحث الأول: حقيقة القدوة، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف القدوة، وذكر نظائرها، وفيه فقرتان:

الفقرة الأولى: تعريف القدوة.

الفقرة الثانية: نظائر لفظ القدوة.

المطلب الثاني: أهمية القدوة، ومجالاتها، وفيه فقرتان:

الفقرة الأولى: أهمية القدوة.

الفقرة الثانية: مجالات القدوة.

المطلب الثالث: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة، وآثارها، وفيه فقرتان:

الفقرة الأولى: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة.

الفقرة الثانية: آثار القدوة.

المبحث الثاني: أسلوب القرآن الكريم في عرض القدوة الحسنة، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: أسلوب التعبير عن القدوة الحسنة.

المطلب الثاني: أصناف القدوة الحسنة.

المطلب الثالث: صفات القدوة الحسنة.

المطلب الرابع: صفات المقتدِي.

المطلب الخامس: طريقة الدعوة إلى أخذ القدوة الحسنة.

المبحث الثالث: مجالات القدوة الحسنة ونماذجها، وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: مجال الدعوة إلى الله تعالى.

المطلب الثاني: المجال الأسري.

المطلب الثالث: المجال السياسي

المطلب الرابع: المجال العسكري.

المطلب الخامس: مجال الصبر

المطلب السادس: مجالات متنوعة

الخاتمة: وفيها نتائج البحث وتوصياته.

وبعد: فأسأل الله تعالى أن يعصمنا من زلل الرأي، وخَطَل القول، وأن يجعل عملنا خالصاً له ـ عز وجل ـ وأن يحفظنا من الشيطان وشركه.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: حقيقة القدوة.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف القدوة، وذكر نظائرها.

المطلب الثاني: أهمية القدوة الحسنة، ومجالاتها.

المطلب الثالث: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة، وآثارها.

المطلب الأول: تعريف القدوة، وذكر نظائرها .

وفيه فقرتان:

الفقرة الأولى: تعريف القدوة.

الفقرة الثانية: نظائر لفظ القدوة.

الفقرة الأولى: تعريف القدوة.

- **تعريف القدوة.**

القدوة: أصل بنائها القَدْوُ، ويتشعب منه تصريف الاقتداء، يقال: قِدوة وقُدوة ـ بضم القاف وكسرها ـ لما يقتدى به[1]، قال الأزهري نقلاً عن الكسائي: "يقال: لي بك قُدْوة، وقِدْوَة، وقِدَة، ومثله حَظِيَ فلانٌ حِظْوَة، وحُظْوة، وحِظَةً"[2].

قال ابن فارس: "القاف والدال والحرف المعتل؛ أصل صحيح، يدل على اقتياس بالشيء واهتداء"[3].

ويدور معنى القدوة فيما ذكره أئمة اللغة على: معنى التأسي، والمتابعة، والتسنن، قال ابن سيدة: "القِدوة والقُدوة ما تسننت به"[4].

(١) ينظر: تهذيب اللغة، ولسان العرب: مادة: قدا، وتاج العروس مادة: قدو، والمحكم، والقاموس مادة: القدوة.

(٢) تهذيب اللغة، مادة: قدا.

(٣) معجم مقاييس اللغة، مادة:قدو.

(٤) المحكم، مادة: القدوة.

ينظر أيضا: تهذيب اللغة، ولسان العرب: مادة: قدا، وتاج العروس مادة: قدو، والقاموس مادة: القدوة.

ولهذا يقال ـ كما ذكر ابن الأعرابي ـ للمتقدم في الخِلال كلها المُبَرِّز فيها: "فلان لا يُقاديه أحدٌ، ولا يُماديه أحدٌ، ولا يُباريه أحدٌ، ولا يُجاريه أحدٌ، وذلك إذا بَرَّز في الخلال كلها"(١).

هذا مدار كلمة القدوة عند أهل اللغة، وأما أئمة التفسير؛ فقد تقاربت المعاني التي ذكروها في حقيقة المراد بالقدوة:

قال الطبري: "معنى الاقتداء ـ في كلام العرب ـ بالرجل: اتباع أثره، والأخذ بهديه، يقال: فلان يقدو فلاناً؛ إذا نحا نحوه واتبع أثره"(٢).

وقال ابن عطية: "معنى الاقتداء: اتباع الأثر في القول والفعل والسيرة"(٣).

ونلحظ في هذا التعريف لفت النظر إلى أن الاقتداء يتناول الفعل والقول والسلوك بعامة، وهذا ما عبَّر عنه ابن عطية في قوله: والسيرة.

وقال الواحدي: "معنى الاقتداء في اللغة: طلب موافقة الثاني للأول في فعله الثاني بمثل فعل الأول لأجل أنه فعله"(٤).

وفي هذا التعريف إشارة إلى أن سلوك الاقتداء مبني في أصله على القصد، فهو ـ كما يقول الواحدي ـ طلب يتضمن قصد موافقة المُقتدَى به.

وقال الشنقيطي: "الأسوة كالقدوة، وهي اتباع الغير على الحالة التي

---

(١) لسان العرب، مادة: قدا.

(٢) تفسير الطبري(٥/ ٢٦٢).

(٣) المحرر الوجيز(٣/ ٤١٢).

(٤) التفسير البسيط(٨/ ٢٦٨).

يكون عليها حسنة أو قبيحة"[1].

وهذا التعريف فيه النص على أن سلوك القدوة يقع في الخير والشر، والحسن والقبيح.

- **أركان القدوة.**

هذه المعاني التي قررها أهل العلم من المفسرين واللغويين لمعنى القدوة والاقتداء؛ وإن تنوعت في عباراتها، فهي تدل على أن لسلوك الاقتداء أركاناً لابد من تحققها، حتى يصدق على الفعل أنه اقتداء، وعلى الفاعل أنه مقتدي، وهي ثلاثة أركان:

الأول: المُقتدَى به، وهو: من يُتابعه غيرُه في سلوكه، ويتميز هذا المقتدَى به ـ عادة ـ بالتقدم والتميز في شخصيته وسلوكه، مما جعله قدوة لغيره، يتأثر الناس بسلوكه، ويتابعونه في أخلاقه وأفعاله، وهذا المعنى قد أشار إليه ابن الأعرابي إذ قال: "فلان لا يُقاديه أحدٌ، ولا يُماديه أحدٌ، ولا يُباريه أحدٌ، ولا يُجاريه أحدٌ، وذلك إذا برز في الخلال كلها"[2].

وكما يكون هذا المقتدَى به فرداً بعينه، فقد يكون جماعة، كما في قوله تعالى حكاية عن قول المترفين من الأمم المكذبة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

على أن هذا المقتدَى به وإن يكن في الأصل أعياناً مشاهدة، يقتدى

(١) أضواء البيان(٨/ ٩٣).

(٢) لسان العرب مادة: قدا.

بها ويتابعها الناس على سلوكها؛ فربما يتوسع الأمر حتى يصير السلوك بذاته، ومجموع العادات؛ قدوة للناس، بغض النظر عن أعيان أصحابها، وفي قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠] إيماء لهذا المعنى، حيث جعل تعالى محل الاقتداء مجموع الهُدى الذي كان عليه الأنبياء، قال البغوي: " ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ يريد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المتقدم ذكرهم: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ فاختص طريقهم بالاقتداء"[(١)].

الثاني: المُقْتدِي، وهو: من يتابع غيره في سلوكه.

الثالث: السلوك الذي يقع فيه الاقتداء، وهذا السلوك ـ فعلاً كان أو قولاً ـ عام يقع في الخير والشر.

وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ بسط الحديث عن هذه الأركان الثلاثة للقدوة، وضرب الأمثلة لها، عند الكلام عن أسلوب القرآن الكريم في ذكر القدوة الحسنة[(٢)].

الفقرة الثانية: نظائر لفظ القدوة.

هناك نظائر لكلمة القدوة وردت في القرآن الكريم، يدور معناها حول معنى القدوة، وهي:

١- الأسوة:

الإسوة: القدوة، ويقال ائْتَس به أي اقتد به وكن مثله، وفلان يأتسي

---

(١) معالم التنزيل (٢/ ٤٢).

(٢) في المبحث الثاني عند ذكر أسلوب القرآن الكريم في ذكر القدوة الحسنة.

بفلان أي يرضى لنفسه ما رضيه ويقتدى به، والقوم أسوة في هذا الأمر أي حالهم فيه واحدة، وتأسى به: اتبع فعله واقتدى به[1].

قال الراغب الأصفهاني: " الأُسوة والإسوة كالقُدوة والقِدوة، وهي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره، إن حسناً وإن قبيحاً، وإن ساراً وإن ضاراً، ولهذا قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ فوصفها بالحسنة "[2].

٢- الإمام:

تدور كلمة الإمام في اللغة على معنى من يؤتم به ويتابع، من رئيس أو غيره، والجمعُ أَيمّةٌ، أصله من الأمِّ، وهو القصد، تقول: أَمَّهُ يؤُمُّهُ أمّاً، وأْتَمَّهُ وتأَمَّمَهُ.

ويقال للرجل الجامع للخير أُمةٌ، وكل من كان على دين الحق مخالفًا لسائر الأديان فهو أُمة وحده[3].

قال الراغب الأصفهاني: " الإمام المؤتم به، إنساناً كأن يقتدى بقوله أو فعله، أو كتاباً، أو غير ذلك، محقاً كان أو مبطلاً "[4].

---

(١) ينظر: تاج العروس ومختار الصحاح، مادة: أسو، والمحكم ولسان العرب، مادة: أسا.

(٢) مفردات الراغب الاصفهاني، مادة: أسا.

وسيأتي في المطلب الأول من المبحث الثاني؛ تعليق على مسألة استعمال لفظ الأسوة في القدوة السيئة.

(٣) ينظر: المحكم وتاج العروس، مادة: أمم، والقاموس المحيط، مادة: أمه، إصلاح الوجوه والنظائر مادة: أمة.

(٤) مفردات الراغب الاصفهاني، مادة: أم.

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر الإمام يُرَادُ به من يَتَّبِعه غيره ويُقتَدَى به، سواء في الخير أو الشر، ففي الخير يقول تعالى في وصف إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠] وفي الشر يقول تعالى في وصف قوم فرعون وقومه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص: ٤١].

٣- الإتباع:

تبع الشيء تَبَعاً وتباعاً في الأفعال، وتبعتُ الشيء تُبوعاً سرت في إثره، وتقول: تَبِعتُ القوم تَبَعا وتَبَاعَةً بالفتح، إذا مشيت خلفهم، والتابع المثالي، وتابع بين الأمور واتر ووالى[1].

قال الراغب الأصفهاني: " يقال: تَبِعَه واتَّبَعَه قَفَا أثره، وذلك تارة بالارتسام والائتمار، وعلى ذلك قوله: ...﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ... ويقال أَتْبَعَه إذا لحقه قال: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾.."[2].

وهذا الإتباع يكون في جانب الخير كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس: ٢٠] كما يكون ـ أيضاً ـ في جانب الشر، يقول تعالى مخبراً عن تبرؤ الأتباع والمتبوعين: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

٤- المثل:

يأتي المثل في القرآن الكريم مراداً به ـ كما يقول الراغب الأصفهاني:

---

(١) ينظر: المحكم وتاج العروس واللسان والقاموس المحيط، وإصلاح الوجوه والنظائر، مادة: تبع.

(٢) مفردات الراغب الاصفهاني، مادة: تبع.

" مقابلة شيء بشيء هو نظيره، أو وضع شي ما ليحتذى به فيما يفعل"[1] .

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر المثل مرادًا به الحالة التي تُحتَذَى كقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ [التحريم: ١١] قال القرطبي: "ضرب ... مثلاً بامرأة فرعون، ومريم بنت عمران، ترغيباً في التمسك بالطاعة، والثبات على الدين، وقيل: هذا حث للمؤمنين على الصبر في الشدة، أي لا تكونوا في الصبر عند الشدة أضعف من امرأة فرعون، حين صبرت على أذى فرعون"[2].

فهذه الألفاظ الأربعة: الأسوة، والإمام، والإتباع، والمثل، هي نظائر لكلمة القدوة تقاربها في المعنى والدلالة، وتأتي في جانب الخير وجانب الشر.

وهناك ألفاظ أخرى لها دلالة قريبة من معنى القدوة، مثل:

١. التقلّيد.

٢. المحاكاة.

غير أنها لمّا لم ترد في القرآن الكريم؛ أعرضت عنها، على اعتبار أن هذه الدراسة دراسة قرآنية.

---

(١) مفردات الراغب الاصفهاني، مادة: مثل.

(٢) الجامع لأحكام القرآن(٢١/ ١٠٤).

المطلب الثاني: أهمية القدوة الحسنة، ومجالاتها.

في هذا المطلب فقرتان:

الفقرة الأول: أهمية القدوة الحسنة.

الفقرة الثاني: مجالات القدوة الحسنة.

الفقرة الأولى: أهمية القدوة الحسنة.

إن من أنجح الوسائل في إعداد الفرد وتكوينه نفسياً، واجتماعياً، وأخلاقياً؛ وجود القدوة الحسنة، فهي عامل كبير في صلاح الإنسان وفساده، بل وصلاح المجتمع من ورائه، فما المجتمع إلا أُنَاسٌ جمعهم زمان ومكان واحد.

إن من السهل على المربين أن يضعوا منهجاً من المناهج الإصلاحية، لكن من الصعب أن يتحقق ذلك المنهج أو تلك الفكرة واقعاً مشاهداً، إذا لم يكن هناك أفراد يطبقونه، ويعملون به، بحيث يراه الناس ماثلاً أمامهم، ويحسونه واقعاً مشاهداً، يتأثرون به ويكون دافعاً لهم على الاقتداء والتأسي، أما بقاء المنهج في عالم الأوراق، وبين الأسطر، وعلى الأرفف، فإنه وإن طال به الزمن؛ فإن أحداً لن يلتفت إليه أو يتأثر به.

ولذا كان من بالغ حكمة الله تعالى ـ وهو الحكيم العليم ـ أن أنزل الشرائع والتكاليف، وجعل لها حملة يعملون بها، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، فلم تَنْزِل شريعة من غير رسول يبلغها للناس، يقتدون به

ويستنون بسنته.

ولما تعجب كفار قريش من كون الرسول بشراً من جنسهم غير مختلف عنهم، جاء الجواب كاشفاً عن جهلهم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٨،٩] وقال عن قوم نوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [هود:٢٧] وعن قوم صالح: ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر:٢٤] وهذا التعجب منهم والإنكار؛ جهل بحقيقة الرسالة ومقصودها، ذلك أن الله لو أرسل ملكاً؛ فهل يعقل أن يتلقوا عنه ! أو يأنسوا إليه! إن قِوَام الإنسان لا يطيق مجرد المشاهدة، فضلاً عن التلقي عنه أو الأنس به، بل إن الأنبياء الكرام كانت الملائكة تأتيهم ـ في غالب الأحوال ـ في صورة بشر عاديين "وحيث كان شأنهم كذلك، وهم المؤيدون بالقوى... فما ظنك بمن عداهم من آحاد الناس"[1].

أضف لذلك أنه لو كان الرسول مَلَكاً؛ لكان للقوم شبهة في عدم اتباع الرسول، متعللين بأنه لا قدرة لهم على أن يفعلوا فعله، أو يقتدوا بهديه.

---

(١) إرشاد العقل السليم(٣/ ١١٢).

وقد أخرج البخاري[١ كتاب بدء الوحي، الباب الثاني] واللفظ له، ومسلم[٤/ ١٨١٦ كتاب الفضائل] أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس – وهو أشده عليَّ – فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعي ما يقول).

ولما سُئلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خلق النبي ﷺقالت: (إن خلق نبي الله ﷺكان القرآن)[١] إنها إجابة دقيقة مختصرة شاملة، ضمت في معانيها منهج القرآن الشامل ومبادئه السامية، حقاً إن النبي ﷺكان الترجمان الحيّ لمبادئ القرآن، والصورة الناطقة لتوجيهاته.

ولما تأثر الصحابة وسلف هذه الأمة بهذه القدوة الحسنة، المتمثلة في شخص الرسول ﷺ، فأُشربتها قلوبهم، وامتلأت بها أرواحهم؛ انتشر الإسلام في كثير من الممالك النائية، والبلاد الواسعة، في شرق الدنيا وغربها، من غير قتال ولا إكراه، بل كان مجرد السلوك العملي لما يعتقدونه؛ كافياً لتأثر الناس بهم وبمعتقدهم.

وأمرٌ آخر؛ وهو أن وجود القدوة؛ مما يعين على الصبر، وتحمل المشاق والصعاب التي تَعْرِض للمرء، مهما تكن، ولهذا فقد كان من مقاصد ذكر قصص الأنبياء السابقين، وسياق ما جرى لهم؛ تثبيت فؤاد النبي ﷺ وأصحابه من ورائه، يقول تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠] قال السعدي:" لما ذَكَر في هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذَكَر؛ ذَكَر الحكمة في ذِكْر ذلك فقال: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ ﴾ أي قلبك ليطمئن ويثبت، وتصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن النفوس تأنس بالاقتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهده، وكثرة من قام به"[٢] ويقول تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه[١/ ٥١٣ كتاب المسافرين] من حديث سعد بن هشام بن عامر.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص:٤٤١.

ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، مُثَبِّتَه على المضي لما قلَّده من عبء الرسالة، وثقل أحمال النبوة ﷺ، وآمِرَه بالائتساء في العزم على النفوذ لذلك؛ بأولي العزم من قبله من رسله، الذين صبروا على عظيم ما لقوا فيه من قومهم من المكاره، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد (فَٱصْبِرْ) يا محمد على ما أصابك في الله، من أذى مكذبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم بالإنذار (كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ) على القيام بأمر الله، والانتهاء إلى طاعته، من رسله الذين لم ينههم عن النفوذ لأمره، ما نالهم فيه من شدة "[1].

وهذا المنهج التربوي القرآني أخذ الرسول صحابته به، فقد روى خباب بن الأرت قال: ((**شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا ! ألا تدعو الله لنا ! قال: كان الرجل فيمن قبلكم، يحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دينه، وَيُمْشَطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله لَيُتِمَّن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، لكنكم تستعجلون**))[2].

إن المجتمعات البشرية اليوم كأشد ما تكون حاجة إلى قدوة حسنة، تهديها سبيل الرشاد، وتأخذها إلى شاطئ الأمان، في ظل تلك النماذج

---

(١) جامع البيان(١١/ ٣٢٠).

(٢) أخرجه البخاري[٧٤٠ كتاب المناقب، باب علامات النبوة].

الضالة، التي انخدع بها كثير من الناس، ولاسيما الشباب، فتقاذفتهم الأمواج ذات اليمين، وذات الشمال، تارة يشرقون، وأخرى يغربون، يأخذون من كل ثقافة قشورها، يتطلعون إلى نماذج بشرية خاوية من معاني البر والهدى، ليس فيها إلا أنها وليدة الإعلام وآلته، من رحمه خرجت، وتحت عينه صنعت.

الفقرة الثانية: مجالات القدوة الحسنة.

القدوة بهذه الرؤية ـ التي أشرنا إليها في المطلب السابق ـ فيها معنى الشمول والإحاطة لمجالات الحياة كلها، وميادينها جميعاً، ذلك أن حقيقة سلوك الاقتداء قائم على معنى المتابعة والتأثر بالمقتدَى به، في سلوكه وأفعاله، والإنسان له في كل حالة سلوكٌ وأفعالٌ ربما كانت محلاً لتأثرِ الناس واقتدائهم بها.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن القدوة تطبيق عملي لسلوك واتجاهات معينة، والمجتمع له في كل مجال من مجالات الحياة قيمة وتصور ما، وكم هي المجالات واسعةٌ رحبةٌ لسلوك القدوة؛ في مجال العلم والعبادة، والأخلاق والسلوك، والتعامل والمعاملات مع الناس، وحتى العادات الاجتماعية إنما تتناقلها المجتمعات بفعل سلوك الاقتداء والمحاكاة، بل إن هذا ليصدق على كل سلوك اجتماعي.

فالعالم والمعلم والمربي ـ مثلاً ـ قدوة في مجتمعه وبين طلابه، فعليه أن يكون فعّالاً لا قوالاً، يأمر بالخير ويسابق إليه، وينهى عن الشر ويحذر

مقاربته، وإلا كان قدوة سيئة لطلابه ومريديه، وهذا نبي الله شعيب عليه السلام يبين لقومه ضلال هذا المسلك، واعوجاج سبيله، مما يتنزه عنه العاقل: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود: ٨٨] قال ابن سعدي: " إن من تكملة دعوة الداعي وتمامها؛ أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به، وأول مُنْتَهٍ عما ينهى غيره عنه، كما قال شعيب عليه السلام ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ ﴾ ولقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ "[1].

والوالدان قدوة في بيتهما، وبين أفراد أسرتهما، فيجب عليهما المحافظة على شعائر الدين، والخلق الحسن، وتربية الأبناء بالسلوك العملي، القائم على القدوة الحسنة، فإن الأطفال أول نشأتهم يتعلقون بآبائهم وأمهاتهم، ويرونهم قدوة لهم في كل سلوك، حتى لو كان سلوكاً غير حميد، بل قد يؤدي هذا التأثر بهما إلى الضلال عن الحق، وإلى هذا المعنى يشير الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **((ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ البهِيمَةُ بهيمةً جَمْعَاءَ هل تحسون فيها من جدعاءَ))**[2] قال الطيبي فما

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٤٣٥.

(٢) أخرجه البخاري [١٠١٥ كتاب التفسير، باب لا تبديل لخلق الله] ومسلم[٤/ ١٦٢٤ كتاب القدر].

قال النووي في شرح مسلم(١٦/ ٢٩٠): " وأما قوله : (كما تنتج البهيمة بهيمة) فهو بضم التاء =

نقله ابن حجر عنه:" والمراد تمكن الناس من الهدى في أصل الجِبِّلَة، والتهيؤ لقبول الدين، فلو تُرك المرء عليها لاستمر على لزومها، ولم يفارقها إلى غيرها؛ لأن حسن هذا الدين ثابت في النفوس، وإنما يُعْدَل عنه لآفة من الآفات البشرية كالتقليد"(١).

ومثل هذا حال الراعي مع رعيته؛ فهو قدوة لهم في القيام بالأمانة، وسياسة الناس بالعدل، وتقوى الله فيما استرعاه، وإلى هذا المعنى يشير علي بن أبي طالب فيما قاله لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، لما حُمِلَ مالٌ عظيم من الخُمُس إليه، قال عمر: (إن قوماً أدوا الأمانة في هذا لأُمَنَاء، فقال له علي: عففت فعفت الرعية، ولو رتعت لرتعوا)(٢).

وفي المبحث القادم ـ إن شاء الله ـ سنشير إلى نماذج ومجالات القدوة الحسنة ذُكرت في القرآن الكريم.

= الأولى، وفتح الثانية، ورفع البهيمة، ونصب بهيمة، ومعناه: كما تلد البهيمة بهيمة (جمعاء) بالمد، أي مجتمعة الأعضاء سليمة من نقص لا توجد فيها (جدعاء) بالمد وهي مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء".

(١) فتح الباري(٣/ ٢٤٩).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية(٢٨/ ٢٦٨).

المطلب الثالث: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة الحسنة، وآثارها.

في هذا المطلب فقرتان:

الفقرة الأولى: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة الحسنة.

الفقرة الثانية: آثار القدوة الحسنة.

الفقرة الأولى: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة الحسنة.

الإنسان مدني بطبعه، يتفاعل مع البيئة المحيطة به، فيتأثر بها، ويؤثر فيها، ولهذا فإن سلوك الاقتداء والتأثُرُ بمن يحيط به؛ سلوك فطري، نابع من أصل تكوين الإنسان، لا يمكن للمرء أن يسلم منه؛ لأنه رغبة ملحة تدفع البشر جميعاً، مهما كانت أعمارهم، أو مستوياتهم العلمية، ومكانتهم الاجتماعية، إلى سلوك الاقتداء والتقليد لغيرهم، وإن اختلفت درجات التأثر والاقتداء، وتنوعت مجالاته وميادينه[١].

وأهم الأسس النفسية التي تُحَفِّزُ وتدفع إلى هذا السلوك؛ الإعجاب بمن يَقْتَدي به، هذا الإعجاب الذي يكون الدافع له؛ ما يتميز به المقتدَى به من صفات خاصة، تجعله قادراً على التأثير في غيره، حتى يقتدي به، ويتأثر بسلوكه[٢].

---

(١) ينظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص: ٢٥٧.

(٢) يعبر علماء النفس عن هذه الشخصية التي يكون تأثيرها على غيرها شديدًا بالجاذبية الشخصية أو (كاريزما:Charisma) ينظر: كتاب: كاريزما السلم الوظيفي.

وقد يترقى الأمر من أن يكون سلوك الاقتداء مجرد إعجاب بالمقتدَى به، إلى أن يكون مبنياً على قناعة وثقة بأهليته، حتى يكون ذات الاقتداء والاتباع عبادة وديناً، وفي هذا المعنى يقول تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٢١] ويقول تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وفي مثل هذه الحالة يخرج سلوك الاقتداء، عن أن يكون مبنياً على مجرد الإعجاب والتقليد الذي قد يقع دون وعي وإدراك، إلى أن يكون سلوكاً يمارسه الإنسان بوعيّ وإدراك، راجياً به تحقيق أهداف ومقاصد معينة، وهذه حقيقة التأسي والاقتداء بالأنبياء والربانيين من أتباعهم.

الفقرة الثانية: آثار القدوة الحسنة.

تضمن ما ذكرناه في مبحث: أهمية القدوة؛ إشارة إلى طرف من آثار القدوة ونتائجها، وفي هذا المطلب نذكر إجمالاً أبرز آثار القدوة الحسنة ونتائجها:

أولا: نشر القيم والمبادئ.

إن وجود قدوة حسنة تحقق قيماً ومبادئ يعترف بها المجتمع، يؤدي إلى نشر تلك القيم والمبادئ في ذلك المجتمع، ويكون حافزاً لأفراده لتطبيقها، متبعين لهذا القدوة، ومتأسين به في سلوكه، وفي هذا المعنى يقول النبي ﷺفيما رواه عبد الله بن جرير ـ رضي الله عنه ـ ((**من سن في الإسلام سنة حسنة؛ فعُمِل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا يَنْقُصُ من**

أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعُمِل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا يَنْقُصُ من أوزارهم شيء))[1].

ثانيا: إعطاء الدليل العملي على إمكان التطبيق.

ذلك أن وجود تطبيق عملي للقيم والمثل؛ يُعطي الأفراد والمجتمعات الدليل العملي على إمكان تطبيق تلك القيم والمثل في الواقع المشاهد، بحيث تزول عن النفس شبهة صعوبتها، وخداعها بعدم إمكان تطبيقها.

والحقيقة أن من أصول مبعث الرسل والأنبياء، تطبيق الشرائع والسنن الإلهية، وهذا المعنى هو ما يشير إليه التوجيه الرباني لعباده بأخذ الأسوة بنبيه محمد ﷺ، يقول تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولما تعجب المشركون من كون الرسل بشراً من جنسهم؛ رد الله عليهم بما يدل على جهلهم بحقيقة الحكمة الإلهية العظيمة في جعله بشراً من جنسهم يأنسون إليه ويقتدون به، يقول تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2].

(١) أخرجه مسلم[٤/ ١٦٣٥ كتاب العلم].

(٢) ينظر في هذا المعنى: كلام أبي السعود في إرشاد العقل السليم(٣/ ١١٢).

ثالثا: التطبيق العملي الصحيح.

ومع أن وجود القدوة الحسنة في المجتمع، يعطي الدليل العملي على إمكانية التطبيق - على ما تقدم - فإنها تعطي أيضا صورة التطبيق العملي الصحيح، بحيث تصبح القدوة نموذجاً صحيحاً للتطبيق العملي للقيم والمبادئ والشرائع، وبهذا تصير أسلوباً من أساليب التعلم، وطريقة من طرق إيصال العلم، يقول الرسول ﷺمقرراً هذا المعنى مُؤكِداً عليه: **(صلوا كما رأيتموني أصلي)**[١] ويقول: **(خذوا عني مناسككم)**[٢]وإذا علمنا أن هذا الأمر - منه عليه الصلاة والسلام - جاء متعلقاً بأعظم شعيرتين عمليتين في الإسلام - الصلاة والحج - علمنا مدى أهمية وجود القدوة التي تعطي التطبيق العملي الصحيح للشرائع والقيم.

ويتأكد هذا إذا أدركنا مدى تفاوت الناس في فهم الخطاب، وتأويل الكلام، تفاوتاً قد يوقع في الاختلاف، والتطبيق العملي مانع من التفاوت في الفهم، عاصم من هذا الاختلاف.

رابعا: التأسي والمتابعة.

ومن الآثار الطيبة التأسي والمتابعة للقدوة الحسنة في سلوكه وعمله؛ بما يعين المرء على القيام بواجباته، ويعزيه فيما يلاقيه من مصائب الدنيا، أو يواجهه من مشاقها ومصاعبها، فكثيراً ما نجد في سلوك القدوة الحسنة

---

(١) أخرجه البخاري [١٢٨ كتاب الأذان، باب الأذان للمسافرين] عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه[٢/ ٩٤٢ كتاب الحج] من حديث جابر بن عبد لله رضي الله عنه.

دافعاً لنا على التأسي به والمتابعة له، بما يعيننا على القيام بواجباتنا الدنيوية أو الأخروية، وحتى فيما نلاقيه من مصاعب ومشاق الحياة.

وعلى هذا المعنى العظيم يربي الله - عز وجل - نبيه ﷺ فيأمره بالتأسي بمن سبقه من الأنبياء والرسل أولي العزم، يقول تعالى: ﴿ **فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ** ﴾[الأحقاف: ٣٥] قال ابن سعدي: " أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعيا لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق أولي العزائم والهمم العالية، الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم، والقفو لآثارهم، والاهتداء بمنارهم"(١).

وهذا المعنى الذي تربى عليه النبي ﷺ أَثَّـرَ في سلوكه العملي، فها نحن نراه يتأسى بصبر موسى عليه السلام على ما يلاقيه من الأذى، ففي الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ أناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب، فآثرهم يومئذ في القسمة، قال رجل: والله إن هذه القسمة ما عُدِل فيها، وما أريد بها وجه الله، فقلت: والله لأخبرن النبي ﷺ فأتيته فأخبرته فقال: ((**فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله، رحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**))(٢) قال

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص: ٧٣١.

(٢) أخرجه البخاري[٦٤٠ كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي يعطي المؤلفة قلوبهم...] ومسلم[٢/ ٦٠٨ كتاب الزكاة].

ابن حجر تعليقاً على هذا الحديث: " وفيه أن أهل الفضل قد يغضبهم ما يقال فيهم مما ليس فيهم، ومع ذلك فيتلقون ذلك بالصبر والحلم، كما صنع النبي ﷺ اقتداء بموسى عليه السلام"[١].

(١) فتح الباري(١٧/ ٢٧٦).

المبحث الثاني:
أسلوب القرآن في عرض القدوة الحسنة.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: أسلوب التعبير عن القدوة الحسنة.

المطلب الثاني: أصناف القدوة الحسنة.

المطلب الثالث: صفات القدوة الحسنة.

المطلب الرابع: صفات المقتدِي.

المطلب الخامس: طريقة الدعوة إلى أخذ القدوة.

تنوع أسلوب القرآن الكريم في عرض القدوة الحسنة، كما تنوع كذلك في عرض النماذج لها، ومن خلال استعراض الآيات، يمكننا تَبَيُّن أسلوب القرآن الكريم في عرض القدوة الحسنة، من خلال خمسة مطالب:

المطلب الأول: أسلوب التعبير عن القدوة الحسنة.

المطلب الثاني: أصناف القدوة الحسنة.

المطلب الثالث: صفات القدوة الحسنة.

المطلب الرابع: صفات المقتدِي.

المطلب الخامس: طريقة الدعوة إلى أخذ القدوة.

المطلب الأول: أسلوب التعبير عن القدوة الحسنة.

باستقراء آيات القرآن الكريم؛ يتبين أن التعبير عن القدوة الحسنة جاء على ضربين:

الأول: التعبير بلفظ القدوة الصريح.

الثاني: التعبير بلفظ يؤدي معنى اللفظ الصريح.

- **التعبير بلفظ القدوة الصريح.**

ورد لفظ القدوة في القرآن الكريم في موضعين، أحدهما في جانب الخير، والآخر في جانب الشر، فأما الذي في جانب الخير فهو قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠] قال ابن كثير: "يعني الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء، والذرية، والإخوان، وهم الأشباه (الذين هدى الله) أي هم أهل الهدى لا غيرهم، فبهداهم اقتد

واتبع، وإذا كان هذا أمر للرسول ﷺ فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به"[١].

- **التعبير بلفظ يؤدي معنى اللفظ الصريح :**

قد تقدم الحديث عند التعريف اللغوي للقدوة؛ ذكر عدد من النظائر لكلمة القدوة، التي يقرب معناها من معنى القدوة، وهي: الأسوة، والإمام، والمثل.

وقد ذكرنا هناك تعريف هذه الألفاظ واستعمالاتها اللغوية، ونشير هنا إلى وجه دلالتها على معنى القدوة الحسنة:

- **الأسوة:**

ورد لفظ الأسوة في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، كلها تشير إلى القدوة الحسنة وهي:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

الموضع الثاني: قوله تعالى:﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم(٣/ ٢٩٩).

وأما الذي في جانب الشر فهو قوله تعالى:﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾[الزخرف: ٢٣].

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ [الممتحنة: ٦].

هذه هي المواضع الثلاثة للفظ الأسوة التي وردت في القرآن الكريم، ودلالتها على معنى القدوة الحسنة ظاهرة.

ومما هو جدير بالإشارة؛ أن لفظ الأسوة لم يرد في القرآن الكريم إلا في جانب الخير دون الشر، خلافاً للفظ القدوة، ولباقي الألفاظ التي هي في معنى لفظ القدوة، وهذا يقوي أن يكون لفظ الأسوة إنما يستعمل في جانب الخير دون الشر، خلافاً لما ذهب إليه بعض أهل العلم ممن نقلت كلامهم عند تعريف الأسوة؛ وأنها تكون في الخير والشر، معتمدين في ذلك على أن الأسوة في المواضع الثلاثة وصفت بالحسنة، ولا توصف بذلك إلا إن كانت تَرِد كذلك في جانب الشر، وهذا وإن كان محتملاً؛ إلا أن عدم استعمالها في القرآن الكريم، أو السنة النبوية، أو كلام العرب ـ فيما وقفت عليه ـ في جانب الشر؛ يدل على أنها لا تستعمل إلا في جانب الخير فقط، ويكون وصف الأسوة بالحسنة في تلك المواضع الثلاثة؛ وصفاً كاشفاً مؤكداً لما يفهم من ذات اللفظ.

- **الإمام.**

ورد لفظ الإمام في مواضع عدة من القرآن الكريم، مراداً به من يُقتدى به في الخير، فمرة جاء بلفظ : إمام، وذلك في مواضع:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤]

قال الطبري: " إني مُصَيرُك للناس إماماً، يُؤتم به ويُقتَدى به"[١].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[هود: ١٧] ونحوه في سورة الأحقاف، يقول تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ ونلحظ هنا أن الوصف جاء للكتاب نفسه، قال أبو السعود عند كلامه عن آية هود: "أي مُؤتماً به في الدين، ومقتدى"[٢].

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾[الفرقان: ١٢] قال ابن عاشور: "سألوا لأنفسهم بعد أن وفقهم الله إلى الإيمان؛ أن يجعلهم قُدوةً يَقتدي بهم المتقّون"[٣].

ومرة جاء بصيغة الجمع: أئمة، في موضعين:

الأول: عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(١) جامع البيان(٢/ ١٨).

(٢) إرشاد العقل السليم(٢/ ١٨).

(٣) التحرير والتنوير(١٠/ ١٧٠).

[الأنبياء: ٧٣] قال قتادة: " جعلهم الله أئمةً يُقتدى بهم في أمر الله "[١].

والثاني: عند قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[السجدة: ٢٤] قال الطبري: ".. وأريد بذلك في هذا الموضع أنه جعل منهم قادة في الخير، يؤتمّ بهم، ويُهْتَدى بهديهم"[٢].

ومرة جاء بلفظ: أمة، وذلك عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠] قال ابن كثير: " فأما الأمة، فهو الإمام الذي يُقتدى به"[٣].

- **المثل:**

ورد لفظ المثل في القرآن الكريم مراداً به الحالة التي تُحتَذَى ويقتدى بها في جانب الخير، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ [التحريم: ١١] قال ابن عاشور: " جاء أحد المثلين للذين آمنوا مثلاً لإخلاص الإيمان، والمثل الثاني لشدة التقوى، فكانت امرأة فرعون مثلاً لمتانة إيمان المؤمنين، ومريم مثلاً للقانتين؛ لأن المؤمنين تبرؤوا من ذوي قرابتهم الذين بقوا على الكفر بمكة " [٤].

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان(١٨/ ٤٧٢).

(٢) جامع البيان(٢٠/ ١٩٤).

(٣) تفسيرالقرآن العظيم(٤/ ٦١١).

(٤) التحرير والتنوير(١٥/ ١٩٣).

المطلب الثاني: أصناف القدوة الحسنة.

حفل القرآن الكريم بنماذج كثيرة للقدوة الحسنة، ترجع في مجملها إلى صنفين:

الأول: الأنبياء.

الثاني: الصالحون من أتباع الأنبياء.

فأما الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فلا شك أن الأخذ بسننهم، والسير في طريقهم؛ مطلب أصيل في رسالات الله جميعاً؛ ذلك أنهم المبلغون عن الله تعالى، قد بعثهم عز وجل ليكونوا قدوة لأممهم، يتأسون بسنتهم، ويقتدون بهديهم.

وأما الصالحون من أتباعهم، فترسم هديهم والتأسي بطريقتهم، هو في حقيقته اقتداءٌ بالأنبياء أنفسهم؛ لأن ما هم عليه من الهدى والرشاد ـ الذي حمل الناس على الاقتداء بهم ـ إنما كان لاتباعهم رسل الله، وسَيْرِهم على طريقتهم.

وقد جاءت آيات القرآن الكريم مقررةً هذا الأمر، داعيةً إليه، يقول الله تعالى ـ بعد أن ذكر عدداً من الأنبياء ملحقاً بهم الصالحين من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ـ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام:٩٠] قال أبو السعود: " فاختصَّ هداهم بالاقتداء، ولا تقتدِ بغيرهم، والمراد بهداهم؛ طريقتُهم في الإيمان بالله تعالى وتوحيده، وأصول الدين دون الشرائع القابلة للنسخ، فإنها بعد النسخ لا تبقى هُدى"[١].

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ٣٩٩).

=

ونلحظ أن هذا الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم، جاء بعد ذكر ثمانية عشر نبياً، مبتدئاً بنوح أول الرسل، مروراً بإبراهيم أبي الأنبياء، ووصولاً إلى آخرهم عيسى، عليهم ـ جميعاً ـ الصلاة والسلام، وفي هذا دلالة عميقة على الحبل الموصول بين رسل الله تعالى، تختلف أماكنهم، وتتباعد أزمانهم، ويبقى هداهم ودينهم واحد.

وملحظ آخر كريم تدل عليه هذه الآية، أشار إليه المفسرون، يقول ابن عاشور: " وفي إفراده بالذكر، وترك عدّه مع الأوّلين؛ رمز بديع إلى فذاذته، وتفرّد مقداره، ورَعْي بديع لحال مجيء رسالته بعد مرور تلك العصور المتباعدة أو المتجاورة، ولذلك قُدّم المجرور وهو: (بهداهم) على عامله، للاهتمام بذلك الهدى؛ لأنّه هو منزلتك الجامعة للفضائل والمزايا، فلا يليق به الاقتداء بهُدَىً هو دون هُداهم"[1].

ومثل هذه الآية الكريمة الدالة على الاقتداء بالأنبياء وأتباعهم؛ قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة:٤] كما يقول تعالى عن عيسى عليه السلام وأتباعه من الحواريين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

= واختلف المفسرون في متعلق الاقتداء بهم، في أي شي يكون، على ثلاثة أقوال:

القول الأول: الاقتداء بهم في توحيد الله تعالى، ونفي الشرك ومحاربته.

القول الثاني: الاقتداء بهم في جميع الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة الكاملة.

القول الثالث: الاقتداء بشرائعهم إلا ما خصه الدليل.

القول الرابع: حمله على كل ما ذكر إلا ما دل الدليل على تخصيصه.

ينظر: جامع البيان (١١/ ٥١٨) ومفاتيح الغيب(٦/ ٣٦٥) والجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٤).

(١) التحرير والتنوير(٥/ ٢٣).

ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ ﴾ [الصف/١٤] قال ابن سعدي: "... ثم هيج الله المؤمنين بالاقتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ ﴾ " (١).

وهذه الآيات تدل ـ أيضاً ـ على أن القدوة كما تكون تأسياً بالأفراد؛ فقد تكون أيضاً بالجماعة، ويكون هذا باتباع منهجهم، وسلوك طريقتهم، ولهذا قال تعالى في شأن مخالفة ما عليه جماعة المؤمنين: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء: ١١٥].

على أن الاقتداء قد يخرج عن أن يكون متابعة لأفرادٍ أو جماعة، إلى أن يكون ذات الكتاب المنزل إماماً يقتدي به الناس، وهذا ما يقرره قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[هود: ١٧] ونحوه في سورة الأحقاف، يقول تعالى: ﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٢] قال ابن كثير: " أي ومن قبل هذا القرآن كتاب موسى، وهو التوراة (إِمَامًا وَرَحْمَةً) أي: أنزل الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٥٢.

لهم، وقدوة يقتدون بها، ورحمة من الله بهم، فمن آمن بها حق الإيمان؛ قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن "[1].

(١) إرشاد العقل السليم(٢/ ١٨).

المطلب الثالث: صفات القدوة الحسنة[(١)].

لما كانت القدوة الحسنة بهذه المنزلة الرفيعة، والمكانة العالية؛ كان لزاماً أن يكون أهلها قد بلغوا رتبة عالية من الكمال البشري، جعلتهم أهلاً لئن يَقتدِي بهم غيرهم، وهذا ما تنطق به آيات القرآن الكريم، إذ هي حافلة بعدد من الصفات التي تؤهل المرء حتى يكون قدوة حسنة، وإماماً يتبع في الخير.

ويمكن تَبيُنُ تلك الصفات واستنباطها عن طريق النظر في الآيات التي أشارت إلى لفظ القدوة، أو الألفاظ الأخرى التي تدل على معنى القدوة الحسنة، والسياق الذي وردت فيه، والشخصيات التي ذكرت مقترنة بالدعوة إلى أخذ القدوة منها.

وسنذكر تلك الآيات متبعين لها بما تدل عليه من صفات، لنخلص بعدها إلى أبرز الصفات التي تؤهل المرء ليكون إماماً، وأسوة يقتدى به.

يقول تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١] فهذه الآيات الكريمات تشير إلى جملة من الصفات هي[(٢)]:

(١) ينظر بالإضافة إلى هذا المطلب، ما ورد في هذا البحث في مطلب: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة.

(٢) ينظر في تفسير الآيات، وما دلت عليه من هذه الصفات: جامع البيان(٧١/ ٣١٦) ومفاتيح الغيب (٩/ ٤٨٤) وتفسير القرآن العظيم(٤/ ٦١١) وإرشاد العقل السليم(٤/ ١٦٣) .

- لزوم طاعة الله تعالى مع الخضوع والخشوع له، وهذا معنى القنوت المشار إليه في الآيات الكريمة.
- الاستقامة على دين الله والميل عن الضلالة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.
- الإخلاص لله تعالى، وهو معنى نفي الشرك عنه في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.
- شكر الله تعالى على نعمه، وهو معنى قوله: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ ﴾.

وأوقفك على آية أخرى في سورة السجدة، أشارت إلى صفات أخرى حسنة لمن يَقتَدي به الناس، حيث ذكر تعالى أنه اصطفى من بني إسرائيل أئمة يُقتَدى بهم، فقال عز وجل: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[1] [السجدة: ٢٤] وهذه الآية الكريمة تشير إلى صفتين أُخْرَيين، هما:

- الصبر على فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى عنه.
- التصديق بآيات الله، واليقين بها.

قال أبو السعود تعليقاً على قوله تعالى: ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ قال: " هي (لما) التي فيها معنى الجزاء، نحو: أحسنت إليك لما

(١) ينظر في تفسير الآية وما دلت عليه من هذه الصفات: معالم التنزيل (٦/ ٣٠٩) وروح المعاني(١٦/ ٢٠) والتحرير والتنوير(١٧/ ١٨١).

جئتنِي، والضمير للأئمة، تقديره: لما صبروا جعلناهم أئمة... والمراد: صبرهم على مشاق الطاعات، ومقاساة الشدائد في نصرة الدين، أو صبرهم عن الدنيا"[١] وهذا المعنى أخذه بعض العلماء فقال: بالصبر واليقين؛ تنال الإمامة في الدين[٢].

وإذا تأملنا هذا الصفات وجدناها ترجع إلى معنى كلي ينتظمها جميعاً، وهو العبودية لله تعالى، ونعني بها العبودية التامة المتضمنة كمال الخضوع والانقياد، والتجافي عن كل مظاهر الشرك، مع ما يتطلبه ذلك من الصبر الجميل لبلوغ هذه الرتبة التي تجعل المرء أهلاً لئن يكون قدوة في الخير، يتأسى به الخلق.

وهذا المعنى هو حقيقة الابتلاء الذي نال به خليل الله إبراهيم عليه السلام منزلة الإمامة في الدين، يشير لذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[البقرة: ١٢٤] والمفسرون وإن اختلفت عباراتهم في تحقيق المراد بمعنى الكلمات التي ابتُلي بها خليل الله، فإنها تشير إلى قيامه بما أمره تعالى به أتم قيام، ولهذا قال ابن كثير: " قوله تعالى: (بكلمات) أي: بشرائع وأوامر ونواه، فإن الكلمات تُطلق، ويراد بها الكلمات القدرية، كقوله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾

(١) إرشاد العقل السليم(٥/ ٣١٥) .

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم(٧/ ٣٧٢).

وتُطلق ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾أي: كلماته الشرعية، وهي إما خبر صدق، وإما طلب عدل إن كان أمرًا أو نهيًا، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أي: قام بهن. قال: (إني جاعلك للناس إماما) أي: جزاء على ما فَعَل، كما قام بالأوامر وتَرَكَ الزواجر، جعله الله للناس قدوة وإمامًا يُقتَدى به، ويُحتَذى حذوه"[1] وقد أكد تعالى هذا المعنى في جوابه - عز وجل - على سؤال إبراهيم عليه السلام أن تكون الإمامة في ذريته من بعده، حيث قال تعالى: ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

ويدل على معنى هذه العبودية التامة التي تجعل المتصف بها قدوة وإماماً؛ ما ورد في وصف إبراهيم وبنيه - إسحاق ويعقوب - عليهم السلام بالعبودية، في سياق تقرير إمامتهم في الدين يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾[الأنبياء: ٧٣].

ولعل هذا يفسر لنا ذكر دعاءِ عبادِ الرحمن ربهم؛ بأن يجعلهم أئمة للمتقين، في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾[الفرقان: ١٢] حيث ذكر تعالى وصفهم بالعبودية (عباد الرحمن) في أول سياق صفاتهم، ثم عَدَّ كثيراً من صفاتهم التي يجمعها ما أشرنا إليه من معنى العبودية التامة لله تعالى، وختم

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم(١/ ٤٠٥).

ذلك بذكر دعائهم ربهم أن يجعلهم أئمة للمتقين، فكأن تلك الصفات تبلغ بهم درجة الإمامة في الدين.

وقبل أن نختم الكلام عن صفات القدوة يحسن التنبيه على ثلاثة أمور:

الأول: أن كل صفة حسنة فيمن أمر الله أن يُقتَدى بها، هي مما يحسُنُ أن يتحلى الإنسان بها ويقتدي بأهلها، وهذا الذي ذكرناه من صفات القدوة الحسنة؛ هو أرفع تلك الصفات وأكملها، ولا يعني أن عداها من صفاتهم الحسنة ليست محلاً للقدوة والتأسي.

الثاني: أن هذه الصفات التي أشرنا إليها؛ هي في أعلى درجات الكمال الإنساني، بحيث جاء التعبير القرآني عن المتصف بها بلفظ الإمام، والجانب اللغوي الذي أشرنا إليه ـ في أول البحث ـ يكشف شيئاً من هذه الحقيقة، حيث يكون الإمام جامعاً للخير، يقوم مقام الجماعة الكثيرة من الناس.

وهي بهذا المعنى في أرفع كمالات البشر، وقليل من يدرك أعلاها، ولهذا فأهلها يتفاوتون فيها، وعندئذ يكفي أن تكون معياراً لصفات القدوة الحسنة، فبقدر ما في المرء منها يكون الاقتداء به.

الثالث: أنه ليس بلازم أن يكون الأسوة الحسنة مُبَرَّأً من كل عيب، سالماً من كل نقص، فإن هذا ليس بمستطاع؛ لما جبل عليه البشر من نقص، دل عليه أن الله تعالى لما جعل خليله إبراهيم عليه السلام أسوة للمؤمنين ـ وهو الموصوف بأعلى صفات القدوة ـ استثنى من ذلك ما وقع منه عليه

السلام لما استغفر لأبيه، فلم يجعله موضعاً للأسوة، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤] مع أن الله تعالى قد بين عذر إبراهيم عليه السلام في استغفاره لأبيه، إذ كان ذلك منه عن وعدٍ وعد به أباه، رجاء أن يهتدي إلى الحق، حتى تبين له أنه عدو لله؛ فتبرأ منه، وترك الاستغفار له، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤] قال السعدي بياناً لمعنى نهي الله للمؤمنين عن الاستغفار للمشركين: " فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير مفيد، فلا يليق بالنبي والمؤمنين؛ لأنهم إذا ماتوا على الشرك، أو عُلم أنهم يموتون عليه؛ فقد حقت عليهم كلمة العذاب... ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه فإنه ﴿ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ في قوله: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه، فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير ﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾"[١]

---

(١) تيسير الكريم المنان ص: ٣٥٣.

المطلب الرابع: صفات المُقتدِي.

إنْ يكن بلوغ درجة القدوة رفيع المقام، لا يرقى إليه إلا من تحلى بجميل الصفات، وكريم الخصال؛ فإن التوفيق للاقتداء، وأخذ الأسوة بمن سلف من أئمة الهدى والرشاد؛ شرف لا يبلغه إلا من كان فيه من الصفات ما يدل على صدقه في تحري الحق، وحرصه على التوفيق إليه.

وإذا نظرنا في الآيات الكريمة الواردة في الاقتداء؛ سنجدها تشير إلى صفتين رئيستين، يجب أن يتحلى بهما من يريد الاقتداء والتأسي، وقد جاء ذكرهما في سياق الدعوة إلى أخذ الأسوة، بالنبي ﷺ، وخليل الله إبراهيم ومن تبعه من المؤمنين:

الصفة الأولى: رجاءُ ثواب الله وخشية عقابه.

وقد ورد ذكر هذه الصفة في موضعين؛ الأول عند قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ... ﴾ [الأحزاب: ٢١] والموضع الثاني في شأن إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، عند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ [الممتحنة: ٦] وهذه الآيات الكريمة فيها إشارة إلى أن التأسي في الخير؛ منوط برجاء المتأسي ثواب الله تعالى وخشية عقابه، وما يتبع ذلك من صحة نيته وسلامة قصده، ولهذا ذُكر اليوم الآخر معطوفاً على رجاء الله تعالى، قال الألوسي: " (لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ) أي: يؤمل الله تعالى وثوابه، كما يرمز إليه أثر ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - وعليه يكون قد وضع (اليوم الآخر) بمعنى يوم القيامة

موضع الثواب؛ لأن ثوابه تعالى يقع فيه، فهو ـ على ما قال الطيبي ـ من إطلاق اسم المحل على الحال، والكلام نحو قولك: أرجو زيداً وكرمه، مما يكون ذكر المعطوف عليه فيه توطئة للمعطوف وهو المقصود، وفيه من الحسن والبلاغة ما ليس في قولك: أرجو زيداً كرمه على البدلية ... "[1].

الصفة الثانية: ذكرُ الله كثيراً.

وهذه الصفة جاء النص عليها في آية الأحزاب، يقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] ونلحظ هنا أن هذه الصفة جاءت معطوفة على الصفة الأولى: (لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ) وهذا فيه إشارة إلى أن التأسي والاقتداء؛ يحتاج إلى كثرة ذكرٍ لله تعالى، ومداومةٍ عليه، قال أبو السعود: "وقَرَنَ بالرجاء ذكر الله (كثيرا) أي: ذِكْراً كثيراً، أو زماناً كثيراً، فإن المثابرة على ذكره تعالى؛ تؤدي إلى ملازمة الطاعة، وبها يتحقق الإئتساء برسول الله ﷺ"[2].

وبهذا يظهر لنا أن هاتين الصفتين؛ هي أعظم ما ينبغي أن يتحلى به من يريد الاقتداء بسير المصطفين الأخيار، إذ التأسي بأصحاب هذه المقامات العالية أمر عظيم، يحتاج معه المرء إلى باعث قوي عليه، ولا أعظم معيناً من الإخلاص لله، ودوام الصلة به ـ عز وجل ـ، قال الشوكاني: "وجمع بين الرجاء لله والذكر له، فإن بذلك تتحقق الأسوة الحسنة برسول الله صلى

(١) روح المعاني (١٦/ ٦٩).

(٢) إرشاد العقل السليم(٥/ ٣٢٧) ونقله عنه الألوسي في روح المعاني(١٦/ ٧٠) وأشار إلى معناه الشوكاني في فتح القدير (٦/ ٣١).

الله عليه وسلم"[١].

وهذه الآيات الكريمة التي تشير إلى صفات المقتدي بأهل المقامات العالية، المتأسي بهم، فيها إيماء - أيضاً - أن سلوك القدوة يجب أن يكون عن وعي وإدراك، وليس مجرد تقليد ومحاكاة، فإن الرجاء المشار إليه فيها لا يكون إلا بقصد وإدراك، ولهذا وصف تعالى هذا السلوك بأنه قدوة وأسوة، ودعا المؤمنين وأرشدهم إليه.

(١) فتح القدير(٦/ ٣١).

المطلب الخامس: طريقة الدعوة إلى أخذ القدوة الحسنة.

جاءت آيات القرآن الكريم داعية إلى أخذ القدوة والأسوة الحسنة بطريقين:

الطريق الأول: الدعوة الصريحة لأخذ القدوة.

الطريق الثاني: الدعوة غير الصريحة.

فأما الدعوة الصريحة لأخذ القدوة، فيدل عليها لفظ: القدوة، والأسوة، والإمام، فهذه الألفاظ ذاتها تدل على معنى الاقتداء والتأسي - كما مر بنا -.

وهذه الألفاظ مع دلالتها الصريحة على معنى القدوة، فقد اقترن بها ثناءٌ على من ذُكر، وبيانٌ أن فيهم أسوة حسنة لمن يَقتَدي بهم، وأنهم أئمة هدى يُتَابَعون على طريقتهم، وأن السالكَ سبيلهم؛ مُتَّبِعٌ طريق الحق، سالكٌ سبيل الرشاد، ولهذا وُصِفَت الأسوة بالنبي ﷺ بالحسنة، وسِيْقَت مساقَ الثناءِ والتعظيمِ، يقول تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١] ومثله في شأن إبراهيم عليه السلام ومن تبعه من المؤمنين، إذ قال تعالى عنهم: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقد استدل بهذه الآية أهل العلم على مشروعية التأسي بأفعال النبي ﷺ، قال ابن كثير:" هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ، في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي

بالنبي ﷺ يوم الأحزاب، في صبره، ومصابرته، ومرابطته، ومجاهدته، وانتظاره الفرج من ربه - عز و جل - صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين"[١].

وكذا الشأن في وصف إبراهيم عليه السلام بالأمة والإمام، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٤] فهذه الألفاظ مع دلالتها الصريحة على معنى القدوة؛ فقد جاءت في سياق الثناء على المذكورين وأنهم محل الاقتداء والتأسي والائتمام.

بل قد وردت الدعوة إلى أخذ القدوة بصيغة الأمر الصريح، وذلك عند قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]

---

(١) تفسير القرآن العظيم(٣/ ٦٢٦)

هذا وقد اختلف أهل العلم من المفسرين والأصوليين في دلالة الآية على حكم أفعال النبي المجردة، على أربعة أقول:

القول الأول: أن فعله المجرد دال على الإباحة.

القول الثاني: أنه دال على الاستحباب.

القول الثالث: أنه دال على الوجوب.

القول الرابع: يتوقف فيه فلا يدل على حكم حتى يعرف بعينه.

ينظر تفصيل ذلك في: أحكام القرآن للجصاص(٥/ ٢٢٤) والمستصفى(٢/ ١٩٢) والإحكام لابن حزم(٢/ ١٤٠) وأصول السرخسي(٢/ ٨٨) والمحصول(٣/ ٢٢٩) والجامع لأحكام القرآن(١٤/ ١٦٥).

قال ابن كثير بياناً لهذا المعنى: " أي: اقتد واتبع، وإذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ، فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به"[1].

وفي معناه أمره تعالى لصحابة رسول الله والمؤمنين؛ أن يكونوا مثل أنصار عيسى ابن مريم في استجابتهم لدعوته عليه السلام، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ ﴾ قال ابن سعدي: "... ثم هيج الله المؤمنين بالاقتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ ﴾"[2].

وأما الدعوة غير الصريحة لأخذ القدوة، فقد وردت في القرآن الكريم في سياق الثناء على أولئك الذين هم محل القدوة، حيث نجد آيات القرآن الكريم تدعو إلى الأخذ بسيرة أولئك الصالحين، والتأسي بهم، وذلك عن طريق الثناء على سيرهم، والإشادة بمواقفهم، والقرآن الكريم حافل بنماذج رائعة من أتباع الأنبياء، فيها ثناء عظيم عليهم، مثل ما ورد في خبر طالوت وجنوده، ومثل خبر مريم ابنة عمران، ومؤمن آل فرعون، ومؤمن القرية في سورة يس، وغيرهم كثير مما ورد في القرآن الكريم، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ ذكر مزيد من النماذج على هذا في المبحث الخاص بنماذج القدوة ومجالاتها.

---

(١) تفسير القرآن العظيم(٣/ ٢٩٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٥٢.

ومما هو جدير بالإشارة أن آيات القرآن الكريم، وهي تعرض تلك النماذج لا تشير ـ في غالب الحال ـ إلى اسمها أو مكانها أو زمانها، وإنما يكون الاهتمام بمواقفها مجردة عن زمانها ومكانها، حتى يكون الاعتبار بالمواقف، بعيداً عن شخوصها زماناً ومكاناً، وحتى تكون تلك المواقف مثالاً يُحتذى به غير مرتبط بمكان أو زمان.

ومن الأمثلة الظاهرة على ذلك؛ الآيات الكريمة التي نزلت إثر غزوة أحد، وما فيها من تعقيب على ما حصل من بعض الصحابة من ضعف عن القتال، لَّما سمعوا صارخاً بمقتل رسول الله ﷺ لتنزل آيات عظيمة تُؤسسُ لمعنى حقيقة الجهاد والبذل لهذا الدين، وإنه لا يرتبط بأشخاص وإن علا مقامهم، وجلت أقدارهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤-١٤٦] قال ابن عاشور: " وقولَه: (وكأين من نبي قاتل) عِبرة بما سلف من صبر أتباع الرسل والأنبياء، عند إصابة أنبيائهم أو قتلهم، في حرب أو غيره، لمماثلة الحالين، فالكلام تعريض بتشبيه حال أصحاب أحُدٍ بحال أصحاب الأنبياء السالفين؛ لأنّ مَحَلّ المثل ليس هو خصوص الانهزام في الحرب.

وأمَّا التَّشبيه فهو بصبر الأتباع عند حلول المصائب، أو موت المتبوع"[1].

ومن صور الدعوة غير الصريحة إلى أخذ القدوة؛ جعل المقتدَى به مثالاً يحتذيه المؤمنون، ويتأسون به، كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١١ ـ ١٢] قال ابن عاشور: " وجاء أحد المثلين للذين آمنوا؛ مثلاً لإخلاص الإيمان، والمثل الثاني لشدة التقوى، فكانت امرأة فرعون مثلاً لمتانة إيمان المؤمنين، ومريم مثلاً للقانتين؛ لأن المؤمنين تبرؤوا من ذوي قرابتهم الذين بقوا على الكفر بمكة"[2].

---

(١) التحرير والتنوير(٣/ ٢٣٩).

(٢) المصدر السابق(١٥/ ١٩٣).

المبحث الثالث:

مجالات القدوة الحسنة ونماذجها.

المطلب الأول: مجال الدعوة إلى الله تعالى.

المطلب الثاني: المجال الأسري.

المطلب الثالث: المجال السياسي.

المطلب الرابع: المجال العسكري.

المطلب الخامس: مجال الصبر.

المطلب السادس: مجالات متنوعة.

مما سبق دراسته في هذا البحث يتضح لنا؛ أن سلوك الاقتداء فيه معنى الشمول لمجالات الحياة، والإحاطة بتطبيقاتها؛ ذلك أن حقيقة سلوك الاقتداء قائم على معنى المتابعة والتأثر بسلوكٍ ما، سواء كان قولاً أو فعلاً، والإنسان له في كل حالة وموقف سلوكٌ وأفعالٌ، فمجالات القدوة على هذا؛ متنوعة تنوع سلوك الإنسان، متعددة تعدد التطبيقات التي يمر بها، في شتى مواقفه وحياته.

وصورة هذا الشمول في مجالات القدوة، والتنوع في تطبيقاتها، ظهرت جليةً في آيات القرآن الكريم، وهي تعرض لنماذج القدوة الحسنة، حيث رأينا فيها من التنوع والتعدد؛ ما يجعلها عصية على الحصر، ويكفي في هذا المقام، الإشارة إلى نماذج القدوة في الأنبياء الذي ذكرهم الله في كتابه، ومن تأمل تلك المواقف التي قصها الله تعالى عنهم؛ لم يشك أن مجالات القدوة تشمل كل تطبيقات الحياة، وجميع مظاهرها، من عقائد وعبادات، إلى سلوك ومعاملات، وهذا ما يجعلنا نحتار في تلك القدوات، أي مواقفها نذكر، وأيها ندرس، وكل مواقفها قدوة، وكل تصرفاتها أسوة.

ويؤكد هذا ـ أيضاً ـ أن دعوة القرآن الكريم لأخذ القدوة الحسنة، جاءت مطلقة غير مقيدة، كما في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] وقوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]

بل حتى الاستثناء الذي ورد في شأن استغفار خليل الله إبراهيم عليه السلام لأبيه، يؤكد هذا المعنى؛ لأن الله إنما استثنى حادثة بعينها، فنهى

المؤمنين عن الاقتداء بها، يقول تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤] .

وإذا كان الحال كذلك؛ فإننا سنكتفي بذكر أبرز المجالات العامة، التي ورد في القرآن الكريم ذكر نماذج للقدوة فيها، مع الإشارة إلى أبرز الأمثلة على تلك المجالات، ولفت النظر إلى موطن القدوة فيها، وعِلمنا بسعتها يَحْمِلُنا على الاختصار في عرضها، وحسبنا أن نضع اليد على أبرز مواطن القدوة فيها.

ويحسن بنا قبل ذكر تلك المجالات هنا التأكيد على ثلاثة أمور:

الأول: أن تقسيم المجالات وتصنيفها؛ مرده الاجتهاد والاستنباط، فيمكن لمن أراد أن يغاير في هذا التقسيم، ويستنبط غيره.

الثاني: لم يكن المقصود من ذكر هذه الأمثلة الاستقصاء في دراستها، فمثل ذلك يطول به هذا البحث، والاختصار فيه مقصود، وإنما أردنا لفت النظر إلى محل القدوة في تلك النماذج، ووضع اليد على موطن القدوة فيها.

الثالث: أن بعض نماذج القدوة ـ ولا سيما الأنبياء ـ تتعلق بأكثر من مجال، ورغبة في الاختصار اقتصرت منها على أبرز مجال يتعلق بها، ولم أُرد تتبع مجالات القدوة فيها.

المطلب الأول: مجال الدعوة إلى الله تعالى.

مجال الدعوة إلى الله تعالى أوسع المجالات في جانب القدوة؛ لسعة ما يتعلق به، فهو يتعلق بمجالات الحياة كلها، وقد تحدث القرآن الكريم عن الدعوة والدعاة، فذكر مناهج الدعوة وأساليبها، وبين طرقها ووسائلها، والقرآن الكريم هو المصدر الأول في معرفة مناهج الدعوة إلى الله وأساليبها على مرّ العصور.

إن هداية الناس وإرشادهم إلى الطريق المستقيم هو أشرف وظائف البشريـــــــــة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] يكفي أهلها شرفاً أنها مهمة الأنبياء وأتباعهم، يَهْلك عليها أولهم، فيأخذها عنه آخرهم.

والقدوة الحسنة من الوسائل المهمة في تبليغ الدعوة، وإيصال الحق للناس، ذلك أن السيرة الحسنة، والأفعال الحميدة، تجذب أنظار المدعوين وتوقع في نفوسهم الأثر البليغ.

وإن سيرة أبناء الإسلام من تجار وغيرهم خير شاهد على مدى أهمية القدوة الحسنة، وبالغ أثرها في الناس، فإن كثيراً من أقطار العالم تتذكر تلك الفئة المؤمنة التي نشرت الإسلام في ربوعها، عن طريق السلوك الحسن والأسوة الطيبة.

وفي هذا المجال سنذكر نماذج للقدوة من سير المصطفين الأخيار من الأنبياء وأتباعهم، تكون زاداً للداعية إلى الله، وعوناً له في القيام بمهمته.

أولاً : معالم عامة للقدوة من سيرة الأنبياء عليهم السلام.

إن كل مواقف الأنبياء والرسل ـ في الأصل ـ هي مجال للقدوة في جانب الدعوة إلى الله تعالى، وكل مواقفهم التي ذكرها الله تعالى في كتابه تمثل جانباً من جوانب الدعوة إلى الله تعالى، ومجالاً من مجالاتها.

ولهذا فإن حصر مواطن القدوة في سيرتهم، وما قص الله من خبرهم، يطول جداً إذ كل سيرتهم موطن للقدوة، وفي أمر الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام بالاقتداء بهم والسير على طريقتهم في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠] إيماء إلى هذا المعنى.

وإذ كان الحال كذلك فإننا نكتفي من سِيَرِهم عليهم الصلاة والسلام في مجال الدعوة إلى الله تعالى، بإبراز مراسم الهدى فيها، ومعالم القدوة منها، وإن من أبرز معالم القدوة في مجال الدعوة إلى الله تعالى من سيرتهم المعالم التالية:

المَعْلَم الأول: العقيدة هي محور دعوة الأنبياء.

إن المتتبع لسياق دعوة رسل الله يجد أن هناك منطلقاً تبدأ منه كل الدعوات، ومُنْتَهى ترجع إليه كل الرسالات، وهو الأساس الذي تُبنى عليه، والمحور الذي تدور حوله، إنه أمر عقيدة توحيد العبادة له ـ عز وجل ـ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦].

لقد قص الله عن أنبيائه الكرام قولهم لقومهم أول دعوتهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] كل نبي يأتي إلى قومه ليقرر هذه

الحقيقة، أول دعوته، ومبدأ بعثته، لتكون الدعوة إلى التوحيد والعقيدة الصافية، ومعالجة الانحراف في تصورها أو مظاهرها في حياة الناس وسلوكهم، هي محور الرسالة ومنطلقها.

والعبودية الحقة لله تعالى التي أرسل بها أنبياء الله، لا تعني ـ فقط ـ الإقرار بالربوبية والخلق؛ فهذا لم ينازع فيه العقلاء، ولم ترسل من أجله الأنبياء، إنما أرسلت الرسل لِتُعبِد الناس لربها في كل مظاهر الحياة، في الأحوال الشخصية، والشؤون الاجتماعية، والنظم السياسية والاقتصادية.

ومن هنا ندرك فداحة الخلل في تصور بعض الناس للعبودية، وأنها تقتصر على أداء بعض شعائر العبادة، إن الأمر أوسع من ذلك وأشمل، إن العبودية لله تعني مطلق الذل والخضوع لله تعالى في كل شؤون الحياة جليلها ودقيقها، يقول تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣].

المَعْلَم الثاني: تقويم السلوك في ضوء العقيدة.

الناظر في دعوة رسل الله الكرام يلحظ أنهم يبدؤون بدعوة قومهم إلى إفراد الله تعالى بالعبادة والخلوص من الشرك، ثم ينتقلون إلى معالجة الانحراف العملي في سلوك أممهم، كلٌ بحسب الانحراف الذي وقع فيه قومه، استمع لقول نبي الله تعالى شعيب وهو يدعو قومه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾

[هود: ٨٤].

هذا هو المنهج العام لدعوة أولئك الرسل الذي كشفته سيرتهم، وهو الحق إذ لا يمكن الفصل بين السلوك والمعتقد، فالعقيدة هي الروح، والسلوك العملي هو البدن، فكيف الفكاك.

وهذا المنهج القائم على هذين الركنين هو المنهج الرباني، وأيّ دعوة إصلاحية تخل بأحد هذين الركنين، سيصيبها من الفشل والنقص في مسيرتها الإصلاحية، بقدر ما أخلت وفرطت فيهما.

المَعْلَم الثالث: المعرفة الدقيقة بأحوال المدعوين.

دلت آيات القرآن الكريم على أن أنبياء الله كانوا على علم تام بأحوال مجتمعاتهم، ومعرفة دقيقة بسلوك أممهم، لا تخفى عليهم مظاهر الانحراف فيهم وعلاماته.

وتلك المعرفة ليست معرفة سطحية، بل هي تفصيلية عميقة، ولذا كان حديثهم مع قومهم، حديث العارف ببواطن الأمور، المطلعِ على خفايا الأحوال، استمع مثلا إلى قول لوط عليه السلام وهو يُجابه قومه بفضح سلوكهم المنحرف، ويكشف لهم بعض أخلاقهم الذميمة: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٨ – ٢٩].

إن من الواجب على الداعية إلى الله تعالى أن تكون معرفته دقيقة

بحال مجتمعه، حتى تكون تصوراته صحيحة، تحكي واقعه، وحتى يكون علاجه مناسباً لحال أمته، ملبياً حاجتها.

المَعْلَم الرابع: تنوع أساليب الدعوة وطرقها.

جُبلت طبائع الخلق على اختلافٍ وتنوع، يُورثُ اختلاف الآراء، وتباين الأهواء، فضلاً عن عوامل الزمان والمكان، وأثرهما البالغ على الناس، ولهذا فقد كشفت سيرة الأنبياء الكرام عن تنوعٍ في أساليب دعوتهم، وتعددٍ في طرقها، ولم يحصر أحد منهم نفسه في أسلوب محدد لا يبارحه، وما ذاك إلا لاختلاف عوامل التأثير في الناس، فما يؤثر فيك قد لا يؤثر في غيرك، ولهذا وجدنا نوحاً عليه السلام يدعو قومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، يخص أحدهم بحديثه تارة، ويعمهم تارة أخرى، يُرغبُ لعلهم يطمعون، ويُرهبُ لعلهم يحذرون، مستعيناً بشتى البراهين والآيات، في الأفاق والأنفس، استمع لخبر الله تعالى وهو يذكر هذا التنوع في دعوة نوح عليه السلام: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم

﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٢ – ٢٠].

إن تقدير الدعاة والمربين لهذا التفاوت والاختلاف أمر بالغ الأهمية؛ حتى يُستَعمل مع كل أحد ما يناسبه من الأساليب والوسائل، ونُخْطئ كثيراً حينما نحصر أنفسنا في مسلكٍ اعتدناه، وطريقةٍ ألفناها، مع أن المجالاتِ رحبةٌ والوسائلَ كثيرةٌ.

المَعْلَم الخامس: التجرد لله في دعوتهم.

وأما تجرد أنبياء الله تعالى في دعوتهم وجهادهم، من أغراض الدنيا ومطامحها ومطامعها، فمعلم ظاهر، وسمة بارزة لكل الرسل والأنبياء، فهذا نوحٌ وهود وصالح ولوط وشعيب، قد أخبر الله تعالى عنهم أن كل واحدٍ منهم قال لقومه أول دعوته: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩] لقد أكد رسل الله على هذه الحقيقة مراراً وتكراراً، حتى يقطعوا كل ذريعة ودسيسة لأعداء الله الصادين عن سبيله، يوهمون بها الناس، أن أنبياء الله أهل مطامع دنيوية، وهذا خاتم الرسل وإمامُهم يقول: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] وعلى الدعاة والمصلحين أن يكونوا على حذر من الفرية التي يرددها أعداء الله تعالى حينما يصمونهم أو يصفونهم بأنه أصحاب مطامع دنيوية ومطامع سياسية.

المَعْلَم السادس: الصبر والمصابرة.

من أبرز مجالات القدوة في دعوة الأنبياء؛ ما كان عليه أنبياء الله من صبرٍ ومصابرةٍ في دعوة الناس، ومراغمة الباطل، وتحمل الأذى الذي ينال

أحدهم في ماله وولده، أو في نفسه، ذلك الأذى الذي ربما شمل التضييق والمحاصرة، أو الطرد والإبعاد، وربما تعداه إلى القتل وسفك الدم، فهذا طريق الأنبياء من سلكه سيصيبه فيه ما أصابهم، ويناله من الأذى بقدر ما فيه من الإيمان، يقول تعالى مقرراً هذه السنة داعياً أصحاب رسول الله إلى الاقتداء بمن سلف من الأنبياء وأتباعهم: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

بل هذا خاتمهم وإمامهم عليه الصلاة والسلام يأمره ربه أن يتأسى بإخوانه من أولي العزم في صبرهم لأمر الله: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] .

يقوي هذا الصبر في أنبياء الله ويؤازره؛ توكل مطلق على الله، وتفويض كامل إليه، وحسن ظن به ـ عز وجل ـ مما جعلهم لا يخشون أذى قوي، ولا مكر عدو، استمع لهذا التحدي البالغ، والاستعلاء بالحق، وفرط الثقة بالله تعالى من نبي الله هود عليه السلام، وهو فرد واحد، يتحدى قومه وهم من هم قوة وبطشاً: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [هود: ٥٤ – ٥٦].

المَعْلَم السابع: العاقبة للمتقين.

ومعلم بارز من دعوة الأنبياء كشفت عنه آيات القرآن الكريم، أن الله تعالى قد جرت سنته بوعد منه أن العاقبة للمتقين، وأن الأرض له

يورثها من يشاء من عباده، قد يتأخر نصر الله، وتشتد وطأة المحن على المؤمنين، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، قد يتأخر نصر الله تعالى لأن أهل الإيمان لم يحققوا شرط النصر والتمكين، وربما حتى يَصِّحَ ويَصْدُق إيمانهم وتعلقُهم بربهم، أو ربما حتى تقوم الحجة على الكافرين والمكذبين، لكن نصر الله إذا نزل كان الغاية في إعزاز أوليائه والبطش بأعدائه يقول تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠].

ثانياً: الجدل بالتي هي أحسن، الأسلوب الأصيل في الدعوة إلى الله.

إن الحوار والمجادلة هي الأسلوب الأصيل في الدعوة إلى الله تعالى، ولعل من أهم ما يواجه الداعية إلى الله تعالى محاورة أهل الضلال، ولا سيما أهل الطغيان منهم، فمجادلة مثل هذا النوع تحتاج إلى مؤهلات خاصة، فالثبات، والقوة، وسرعة البديهة، عناصر أساس في صفات المحاور، لاسيما عندما يكون الجدل مع أهل السلطة والنفوذ، أصحاب القدرة على البطش بخصومهم.

وحينما يذكر الحوار والجدال؛ فلا توجد شخصية يصدق عليها أنها أوفى نموذج للقدوة في هذا المجال، بما تمتلكه من مؤهلات الحوار بكفاءة وجدارة كخليل الله إبراهيم عليه السلام.

لقد عرضت آيات القرآن الكريم إبراهيم عليه السلام في صورة الرجل الحليم العاقل، الذي أوتي قدراً كبيراً من البلاغة، وقدرة عجيبةً على المحاورة والجدل بالتي هي أحسن، بأسلوب ومنهج لا نظير له، يوافق

العقل ويوقظ الإحساس، ويلامس أوتار القلوب، ويخاطب المنطق، يستشهد بشتى الأدلة والبراهين من آيات الله في الأنفس والآفاق.

انظر إلى حواره مع ذلك الملك الجبار العاتي[1]، إنه يكشف لك سرعة البديهة عند الداعية إلى الله تعالى، يكشف لك سعة الأفق والفكر في عقليته عليه السلام، وأمرٌ آخر بالغ الأهمية وهو الثبات ورباطة الجأش في أصعب المواقف شدة وأكثرها خطراً.

وعند محاورته لقومه تتكشف لك القدرة الذهنية العجيبة، القدرة على حشد الأدلة المتنوعة، في ذاتها وغاياتها وسياقها، فيرصها لتكون أشبه بالجند المحتشدين لنصرته، كل يضرب في مجال، ويصيب من المخالف مقتلاً، مع التفنن البديع في الحوار، والتنوع المذهل في سياقاته وجوانبه.

وأخيراً في حواره مع والده يكشف لك تلك الشخصية الحانية الرفيقة الحليمة، في أسلوب هادئ دافئ، وعبارات رقيقة، تفيض رحمة وشفقة وبراً وإحساناً، مع ما تواجهه من استنكار واستكبار وتعنت.

ونقف الآن على آيات من القرآن الكريم تصور نموذجاً من نماذج القدوة في الحوار في مجال الدعوة إلى الله تعالى، يسترشد بها الدعاة ويستهدي بها المصلحون، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا

(١) الوارد في سورة البقرة، ويأتي قريباً ذكره.

يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة: ٢٥٨]. لقد سَكِرَ هذا الملك بقوة السلطان، فقام يتطاول على مقام الربوبية، ويدعي صفة من صفاتها، وذلك حينما أخبره إبراهيم عليه السلام بصفة من صفات الله تعالى " الإحياء والإماتة " وهي نعمة يستحق المُنعم بها العبادة وحده، فما كان من هذا المخدوع بالقوة، المغرور بالقدرة إلا أن قال: " أنا أحيي وأميت، أقتل هذا فيموت، أو أعفو عنه فيحيا"[(١)] وهذا منطق فيه عجرفة، سوغها قوة السلطة والنفوذ، لكن لننظر إلى موقف إبراهيم هل تلكأ أو تلعثم ؟ هل تردد أو تَحَيّر، أمام هذا التهديد المبطن من الطاغية الكافر، وهو يلوح بقدرته عل قتله وسفك دمه؟ كلا، لقد كان ثابتاً حاضر البديهة، سريع الجواب، فنقله نقلةً عجيبة، نقله إلى أُفق أرحب، لا يستطيع معه هذا المكابر أن يتمادى في كبره.. فتحداه أن يغير نظام الشمس في طلوعها وغروبها﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾لينزل عليه هذا التحدي كالصاعقة تصرعه، فلم يُحِر جواباً، ولم يجد مخرجاً، فيفغُرُ فاهُ ويَشخُصُ بصره، تعلوه الحيرة وترتسم على وجهه الدهشة ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

إن على الدعاة إلى الله تعالى أن يعلموا أن حجج أهل الباطل واهية، لا تقف أمام قوة الحق وتأثيره، لكنها تحتاج إلى داعية قد تحصن بالعلم، وتسلح بالثبات، واستبطن البديهة، متوكلاً على ربه، مستنزلاً تأييده

(١) ينظر في معنى الآية: جامع البيان(٥/ ٤٣٢) ومعالم التنزيل(١/ ٣١٥) والمحرر الوجيز(١/ ٣١٣).

ومعونته.

ومن الأمور المهمة التي تؤخذ من هذه المجادلة، نوعية الحجج التي ذكرها إبراهيم عليه السلام، إنها حجج واضحة لا تعقيد فيها ولا تكلف، أمور عادية في هذا الكون الفسيح، كل الناس يشاهدها وكلهم يحسون بأثرها، يستوي في ذلك العالم والجاهل، والفقير والغني، وهذه المحسوسات مع بعدها عن التعقيد والتركيب إلا أنها تحمل في مضمونها وحقيقتها، سر هذا الوجود بحيث بهت الكافر أمامها.

ثالثاً: الداعية والمبادرة إلى الدعوة.

بعد أن تتضح معالم الهدى، ويتحدد للداعية هدفه، ويتسلح بالعلم، فلا مجال للإخلاد إلى الأرض والتسويف، واصطناع العوائق الوهمية أمام ميدان الدعوة، إن التأخر والتسويف لن يكسب الداعية إلا بلادة الذهن، وحب الركون وإِلْفَ الحياة الوادعة.

على الداعية إلى الله تعالى بعد أن يتسلح بالعلم ويتصور هدفه، أن ينزل إلى ساحة الدعوة، ليصارع قوى الشر في المجتمع، وإن أيّ تأخر بعد هذا لن يكون في صالح دعوته، إنما هو إمداد لأهل الغواية، وتَخْلِيةٌ للميدان من داعي الهداية.

لقد أخبر القرآن الكريم عن نفر تلقوا دعوة الحق، ومنها انطلقوا مباشرة إلى قومهم منذرين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ .

قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ . يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الأحقاف: ٢٩-٣٢] إنها حادثة عجيبة، تتحدث عن نوع غير معهود من الدعاة والمدعوين، فهاهنا عالم آخر يفتح لنا آفاقاً رحبة في مجال الدعوة إلى الله تعالى، لا يقف عند حدود البشر، بل يتجاوزهم إلى عالم الأرواح اللطيفة.

لقد قص الله خبرهم وصورة من مبلغ تأثرهم بما سمعوا، وسرعة استجابتهم، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ إن هذا التعبير يلقي بظلاله على الحدث، فالسرعة والنُفْرة إلى الواجب بمجرد سماع آيات القرآن، معلم بارز في هذه الحادثة، وكم نحن بحاجة إلى هذه النوعية من المبادرة، فالهدى إذا اتضحت معالمه، كان التسويف والتأخير واصطناع العوائق الوهمية؛ ضرباً من الإخفاق وعدم التوفيق.

وحينما وعى الصحابة رضي الله عنهم هذا المعنى، كان الرجل منهم يسمع الآية أو الحديث فينطلق بها إلى قومه من غير تأخير، هذا ضمام بن ثعلبة لما قدم إلى النبي ﷺ وأخذ عنه أركان الإسلام، والحلال والحرام، كرّ عائداً إلى قومه، فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى! قالوا: مه يا ضمام! اتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون، قال: ويلكم والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولاً، وأنزل كتاباً،

استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن إلا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه، قال فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضِرِه رجل ولا امرأة إلا مسلماً"[(١)].

رابعاً: نُصْرةُ الدعاة إلى الله.

لقد تولى دعاة الله تعالى مهمة هي أعظم المهام وأخطرها، مهمة تنوء دون حملها شمُّ الجبال الراسيات، ولهذا فهم بحاجة إلى من يؤازرهم في مهمتهم، ويعينهم في أداء رسالتهم، يحتاجون إلى أعوان لا يترددون في بذل كل غال في سبيل هذه الدعوة، أناس لا يهنون لما أصابهم في سبيلها، ولا يضعفون لعدوهم ولا يستكينون.

وفي القرآن الكريم يذكر الله تعالى نموذجاً كريماً من نماذج نصرة دعاة الله تعالى، والوقوف معهم حتى يبلغوا رسالات ربهم، يتمثل في حواري نبي الله عيسى عليه السلام، الذين امتدح الله نصرتهم لنبيه، وأثنى على موقفهم، بل ودعا المؤمنين من هذا الأمة أن يكونوا مثلهم، ويقتدوا بهم في نصرة الله ورسوله، يقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ [الصف/١٤] لقد أثنى الله على نصرتهم لنبيه، وقيامهم معه حتى يبلغ دعوة الله، يقول تعالى ذاكراً تلك النصرة لما أحس عيسى عليه السلام الكفر من قومه: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ

---

(١) أخرجه أحمد(٥/ ٤٨٨) وقال في مجمع الزوائد(١/ ٣٦١): "ورجال أحمد موثقون".

بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[آل عمران: ٥٢ – ٥٣] قال ابن كثير: "والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مواسم الحج، قبل أن يهاجر: من رجلٌ يُؤْوِيني على أن أبلغ كلام ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أُبلغ كلام ربي، حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه، وهاجر إليهم فآسوه ومنعوه من الأسود والأحمر، وهكذا عيسى ابن مريم، انتدب له طائفة من بني إسرائيل، فآمنوا به وآزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه" [١].

وفضلاً عن هذا فإن دعاة الحق يعترض طريقهم الشيطان بأوليائه وأعوانه من شياطين الإنس والجن، بالكيد والمكر تارة؛ وبالتهديد والتلويح بالعنف تارة أخرى، وربما كان دعاة الحق لا يأوون إلى قوة تمنع عنهم أذى الظالمين وبطشهم، وكثيراً ما وقف الناس موقف النُظار يشاهدون دعاة الله تعالى يُكاد لهم، ويُمكر بهم، ويتعرضون للأذى والتضييق، وهم ساكتون سكوت الموت، لا ينصرون ولا يدفعون، غير أنه وإن تكن هذه حال غالب الناس، فهناك من يبذل نفسه وماله فِدى لدعاة الله، يرخص ماله وعرضه في سبيل الله، وتهون عليه نفسه في ذات الله، وفي كتاب الله تعالى نموذج مشرق لهذه الفئة من الناس، يتأسى به المؤمنون، حيث ذكر الله تعالى خبر المؤمن من القرية في سورة يس[٢] يقول تعالى عنه: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٥).

(٢) ينظر في خبره: جامع البيان(٢٠/ ٥٠٤).

رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٠ – ٢٥] لقد كان من خبر هذا الرجل أن رأى قومه معرضين عن الحق، مبعدين في الضلال، عازمين على ارتكاب أشد الجرائم فظاعة وبشاعة، جريمة قتل رسل الله، ولهذا انتفض على قومه وسعى إليهم من أقصى المدينة، ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم على رسل الله، فصاح فيهم بهذه الموعظة الصادقة، وقام نصرة لله ورسله، فكان جزاؤه أن أدخله الله الجنة في نعيم مقيم، وجوار كريم، فهو نموذج مشرق للتضحية في سبيل الله ونصرة لدعاته.

ومن النماذج البارزة في مجال نصرة الدعاة إلى الله تعالى وقول كلمة الحق: مؤمن آل فرعون، الذي ذكر الله خبره في سورة غافر(١)، يقول تعالى عنه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨] لقد جاءت هذه الشريعة لِتُعْلِي من شأن كلمة الحق، ولا سيما حين تقال في وجه ملك يرغب إليه الناس ويرهبون، حينها تكون كلمة الحق أمامه لها تبعاتها الخطيرة، خصوصاً إذا علمنا ما انطوت عليه نفوس أهل

(١) ينظر في خبره: تفسير القرآن العظيم(٧/ ١٤٠).

السلطة من تسلط وتجبر، فحينما يقف أمامه رجل من سواد الناس، لا يملك من مقومات القوة المادية ما يدفع به عن نفسه، ويحجب عنها الأذى، ومع هذا كله يقف أمامه رابط الجأش، صادعاً بالحق، لا تأخذه في الله لومه لائم، حينها تكون هذه الكلمات منه هي أفضل الجهاد وأرفعه[(١)].

ومما يجعلها أفضل الجهاد أنها صيحة تحذير جاشت بها نفس المؤمن، إذ يعتزم فرعون وملؤه الإقدام على أبشع جريمة، جريمة قتل موسى عليه السلام، فلا مجال بعد هذا للسكوت عن الباطل، والتواري بالإيمان، والإغضاء عن المنكر، لقد وجب الآن الوقوف في وجه الطاغية، وقول كلمة الحق، حتى وإن كان ثمنها ذهاب نفسه التي بين جنبيه، ليصيح فيهم بكل ما أوتي من قوة: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ إنها كلمة مدوية، كلمة عظيمة، في موقف عصيب، تستحق كل ذلك الاحتفاء والثناء الذي تضمنته آيات القرآن الكريم لها.

(١) أخرج أبو داود[١٢/ ٤٨٢ كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي] والترمذي[٨/ ٣٤٥ كتاب الفتن، باب أفضل الجهاد] وابن ماجة[٢/ ٣٧١ كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر] وأحمد(٣/ ١٩) وغيره من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) قال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه.أ.هـ وذكر الارناؤوط في تعليقه على المسند شاهدين له، ثم قال عنه: حسن لغيره.

خامساً: الداعية وداء العجلة.

لقد اختار الدعاة إلى الله تعالى مواجهة الناس، مواجهتهم في شهواتهم وأهوائهم وملذاتهم، ونذروا أنفسهم لهذه المهمة، فلا ريب أن يَلْقوا الصد والتكذيب، والأذى والتضييق، فعليهم أن يحذروا اليأس والاستسلام، أن يحذروا إلقاء السلاح والتخلي عن المعركة، وترك ميدانها، والانزواء خلف الجدران، وترك المجتمع تتقاذفه أمواج الباطل، فذاك أمرٌ يقدر عليه كل أحد، وما أيسره..

وفي كتاب الله تعالى عاتب الله نبياً كريماً من أنبيائه[1]، لما غضب على قومه، حين لم يستجيبوا له، فعجل في خروجه عنهم وهجره لهم، ولم يصبر حتى يحكم الله له، ولذا فقد نهى الله تعالى رسوله الكريم عن مثل هذه العجلة في مجال الدعوة فقال مخاطباً نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٤٨ – ٥٠] قال السعدي: " وهو يونس بن متى، عليه الصلاة والسلام، أي: ولا تشابهه في الحال التي أوصلته وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضبًا لربه "[2] إن مشقة الدعوة الحقيقة هي مشقة الصبر لحكم الله حتى يأتي موعده في الوقت الذي يريده

(١) هو يونس بن متى، ينظر في خبره: تفسير القرآن العظيم(٥/ ٣٦٦).

(٢) تفسير الكريم الرحمن، ص: ٨٨١.

بحكمتـه، وفي الطريـق مشـاق كثـيرة، مشـقات دعـوة النـاس، ومشـقات تكذيبهم، ومشقات الصبر على أذاهم، ثم مشقات إمساك النفس على هـذا كله، راضية مستقرة، مطمئنة إلى وعد الله الحق.

سادساً: زوجات الدعاة.

إن مهمة الدعاة إلى الله مهمة عظيمـة، تتطلـب كثـيراً مـن التضـحية بالوقت والمال والجهد، تتطلب كثيراً مـن صـفاء الـذهن واجـتماع القلـب، ولهذا فهم بأشد الحاجة إلى أن تكون بيـوتهم التـي يـأوون إليـه مبـاءة أمـنٍ، وارفة الظـلال، يسـتريحون فيهـا اسـتراحة المحـارب، تهـدأ فيهـا أعصـابهم، وتسكن فيها أرواحهم.

إن الداعية إلى الله تعالى لا يستطيع أن يتصدى للدعوة إلى الله تعـالى خارج بيته، إذا لم يكن ذلك البيت واحة وارفة الظلال، لا يستطيع الداعيـة إلى الله تعالى أن يتقن القيام بمهمته، وهو مشغول الذهن بـما يـدور في بيتـه مـن خلافـات أو منغصـات، أرأيـت محاربـاً يخـرج إلى سـاحة القتـال وهـو مشغول الذهن بحصونه الداخلية.

وفي كتاب الله تعالى نموذج كريم لنسـاء الداعيـة الأول محمـد عليـه الصلاة والسلام، حيث أنزل الله تعالى عـلى نبيـه صـلى الله عليـه وسـلم آيـة التخيير، التي تضمنت تخيير نسائه بين البقاء معه على قلة العـيش وشـظفه، وبـين أن يسرحهـن سراحـاً جمـيلاً، فـما كـان مـنهن رضي الله عـنهن ـ وهـن العالمات بعظـم المهمـة التـي يقـوم بهـا النبـي صـلى الله عليـه وسـلم ـ إلا أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، على شظف العيش الذي يلاقينه في هذه

الدنيا، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٨ – ٢٩] إنه موقف كريم من نساء كريمات اخترن البقاء على شظف العيش والصبر على قلة أسباب الحياة، على زينة الدنيا ومتاعها، وتلك قدوة حسنة لزوجات الدعاة إلى الله تعالى.

إن زوجات الدعاة قد يلاقين شظف العيش وقلته، بل قد تجد الواحدة منهن إهمالاً من زوجها وعدم رعاية لها حق الرعاية، لانشغاله بالدعوة إلى الله تعالى، وقد ترى قريباتها ومن حولها في عيشة راضية لا يكاد الزوج يفارقهن، الأسباب لهن مهيأة والأحوال مواتية، أما هي ـ فلأن زوجها داعية إلى الله تعالى ـ لا تلقى ذلك الاهتمام، وتلك الرعاية، لا يكاد الزوج يجلس إليها حتى يأتيه داعي النفرة إلى الدعوة، يغيب عنها الأيام والليالي، وربما الأشهر، ولو أنه لم يكن داعية لاستراحت من هذا كله، حقاً إن مثل هذا الشعور قد ينتاب كثيراً من زوجات الدعاة، بل قد يجدن في نصوص الشرع ما يعضد موقفهن.

ولكن هل نظرت هذه المرأة إلى موقف أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وتأملت الحامل لهن على اختيار الله ورسوله والصبر على قلة متاع الدنيا، والتضحية بأوقاتهن وسعادتهن الخاصة من أجل الله ورسوله والدار الآخرة.

إن الدعاة إلى الله تعالى هم بأشد الحاجة إلى نساء يقفن بجانبهم،

ويذللن السبيل لهم، ويصبرن على مضاضة العيش، وضيق الحال، محتسبات عند الله تعالى راجيات ثوابه وفضله.

على نساء الدعاة إلى الله تعالى أن يعلمن أن من الصعوبة أن يواجه الداعية إلى الله تعالى هم الخارج وهم الداخل معاً، لن يستطيع الدعاة أن يواجهوا هم المجتمع وإصلاحه، وهم الأسرة المتمثل في المضايقة، وطول الشكوى، وكثرة التذمر من الحال، إن مثل هذا كفيل بأن يخلق اضطراباً في فكر الداعية، وتشويشاً في ذهنه، يمنعه من إتقان عمله، والقيام بواجبه.

ونحن إذ نطلب من زوجات الدعاة أن يضحين بحظوظهن من أزواجهن من أجل الله والدار الآخرة، فإننا لا ندعوها إلى ترك كل حقوقها وإهمالها، كلا.. لأن هذا حق فرضه الله تعال لهن، إننا ندعوهن إلى التنازل عن الحظوظ والفضول عن قدر الحاجة، ندعوهن إلى الوقوف مع أزواجهن وإعانتهم على مهمتهم، ندعوهن إلى أن يجعلن البيت مكاناً يستريح فيه الداعية من هموم دعوته، ويلقي على أعتابه الأذى الذي يلقاه.

المطلب الثاني: المجال الأسري.

الأسرة لَبِنَةُ المجتمع الأولى، وعنوان صلاحه وفساده، وصحتة وسقمه، إذا أَقمْتَ أسرة طيبة كريمة؛ أَقمْتَ مجتمعاً طيباً كريماً، والقدوة في المجال الأسري مجال بارز، تضمن عدداً من النماذج الحسنة التي يقتدي بها المرء في حياته، حيث نجد في القرآن الكريم الإشارة إلى نماذج متنوعة متعددة للقدوة، نشير منها إلى بعض أبرز تلك النماذج:

أولاً: تربية الأبناء.

تربية الأبناء هي المهمة الرئيسة الموكلة إلى الأسرة، وهي أخطر المهام وأبعدها أثراً، فالأبناء شُدَاةُ المستقبل وأمل الأمة، وإلى هذا المعنى يشير النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يُمَجِّسَانِهِ**))(١).

وفي القرآن الكريم نماذج للقدوة الحسنة في تربية الأبناء، أبرزها ما جاء في وصية لقمان لابنه، حيث تمثل منهجاً في تربية الأبناء والأخذ بيدهم نحو مسالك الهدى والرشاد، يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه[١٠١٥ كتاب التفسير، باب لا تبديل لخلق الله] ومسلم في صحيحه[٤/ ١٦٢٤ كتاب القدر].

جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٣ – ١٩] لقد تضمنت وصايا لقمان لابنه عدداً من المعالم البارزة في تربية الأبناء، يقتدي بها الآباء والمربون، ومنها:

- إن تربية الأبناء على معرفة خالقهم المنعم عليهم، هي أول ما يجب على الأسرة المسلمة؛ لأن معرفة الله تعالى بما له من جميل الصفات وجليلها، يورث في النفس محبة الله وتعظيمه، وتحقق معنى العبودية الخالصة له عز وجل من كل مظاهر الشرك وصوره.

ولهذا رأينا لقمان يؤكد على هذا المعنى، ويلفت نظر ابنه إلى كمال قدرة الله تعالى وبالغ علمه بخلقه، على نحو يملأ النفس من عظمة الله ومقامه.

إن الإيمان بالله تعالى يورث الاستقرار في حياة الإنسان، ويضبط السلوك، ويعمق في النفس الشعور بمراقبة الله تعالى واطلاعه، وهذا كله يحقق ضبط سلوك الأبناء وأفعالهم.

إن من واجب الآباء والمربين، أن يغرسوا في ضمائر النشء مراقبة الله

تعالى واطلاعه على أعمالهم، حتى ينشأوا على مبدأ الرقابة الذاتية الصادرة عن ضمائرهم.

- وبعد التأكيد على حق الله تعالى ـ أعظمِ الحقوق وأولِها ـ يأتي التأكيد على حق الوالدين، فحقهما أعظم الحقوق بعد حق الله تعالى، لا يؤثر على هذا الحق حتى كفرهما بالله عز وجل.

غير أن حق الوالدين وإن عظم فهو تابع لحق الله تعالى، ولهذا لا يجوز متابعتهما على الباطل حتى ولو سعيا جاهدين في صرف ابنهما إليه

- وفي ثنايا ذكر مجاهدة الوالدين الكافرين في محاولتهما إضلال ابنهما؛ يأتي التأكيد على أهمية اتباع سبيل المؤمنين المنيبين إلى الله تعالى، للتأكيد على أهمية الاقتداء بأهل الاستقامة وسلوك طريقهم في مَسِيْرِهم إلى الله تعالى.

- وأمر الأبناء بالمحافظة على أركان الدين وشرائعه الكبار، ركن أصيل في تربيتهم، فتلك شعائر الإسلام العظام، لا يجوز التهاون بها والتسامح فيها، وجاء النص في وصية لقمان على شعيرة الصلاة، لأنها أعظم الشرائع، وهي الصلة بين العبد وربه، وكم جميل أن ينشأ الأبناء على حسن الصلة بربهم وخالقهم منذ نعومة أظفارهم.

ومما يجدر لفت النظر إليه أن لقمان لم يأمر ابنه بالصلاة وإنما أمره بإقامتها، ولفظ الإقامة يدل على الاستقامة المنافي للعوج، وظلال هذا اللفظ توحي بأداء العبادة على أكمل وجه وأوفاه، إن على الآباء والمربين أن يكون اهتمامهم متجهاً إلى إتقان الأبناء لما يكلفون به من شعائر

العبادة أو حتى تلك الواجبات الدنيوية، وليس مجرد أدائها ظاهرياً دون إتقان وإحسان.

- بعد التأكيد على حق الله تعالى ـ حق التوحيد والعبادة ـ وحق الوالدين؛ يأتي التأكيد على مبدأ العلاقة الإيجابية مع المجتمع الذي يعيش فيه، تلك العلاقة التي تتميز بالتفاعل المثمر، الذي يجعل المرء يشعر بمسؤوليته الاجتماعية تجاه مجتمعه وناسه الذين يعيش معهم، ولهذا وجدنا لقمان يأمر ابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى الذي يلحقه بسبب هذا، كما نجده يحذره من بعض الآفات التي تنافي العلاقة الاجتماعية الإيجابية مثل: كبر النفس وغرورها، وإعجابها بما تملكه.

إن نشأة الأبناء على هذا المعنى الاجتماعي الكبير؛ يثمر جيلاً متماسكاً متعاطفاً، إيجابياً تجاه مجتمعه وناسه الذي يعيش بينهم.

- بقي أن نقول إن هذه الوصية تلفت النظر إلى العلاقة الوثيقة بين الاب وابنه، ومدى القرب بينهما، ولهذا كانت الوصية، تفيض حناناً ورحمة، ومحبة وشفقة، حيث يوصي الأب ابنه وفلذة كبده، فيدله على خير ما يعلم، ويحذره من شر ما يعلم، بأسلوب غاية في العطف والحنو، يستثير كوامن النفس وإدراكها، ويخاطب وجدانها وعقلها، وهكذا يجب أن تساق الوصايا والمواعظ، فليس لأنك أب أو مربٍ تلقي الكلام هكذا أمراً ونهياً، بل لا بد أن تتخير أجمل الألفاظ وأرقها، تخاطب بها عقول الأبناء وأرواحهم.

وبعد.. فتلك وصية لقمان لابنه متضمنة أصول التربية وأسسها، وهي ترجع في مضمونها إلى أساسين:

أولهما: تربية الأبناء على الوفاء بالحقوق، وأعظم تلك الحقوق: حق الله تعالى في توحيده وعبادته، ثم حق الوالدين في الإحسان إليهما وحسن صحبتهما.

ثانيهما: تربيتهم على التفاعل الايجابي مع المجتمع: وصورته الجلية في الأمر بالمعروف، كل معروف، والنهي عن المنكر، كل منكر، بما يقتضيه هذا التفاعل من الصبر على الأذى الذي قد يلحقه جراء ذلك، وكذلك ترك بعض المسالك السلبية من الكبر والغرور.

تلك بعض المعالم البارزة في وصايا لقمان لابنه، بما تضمنته من دلالات عميقة في علاقة الأب بابنه، ومعالم تربوية في تنشئة الأبناء، ودِلالتهم على خير ما يعلم لهم، وكلها معالم يقتدي بها الآباء والمربون، وهم يقومون بواجب تربية الأبناء والعناية بهم.

ثانياً: الأسرة وشعائر الدين.

وفي نموذج آخر يمثل قدوة للآباء، وهم يتعاهدون أهليهم في القيام بشعائر الله، والمحافظة عليها، تتمثل هذه القدوة في نبي الله إسماعيل عليه السلام، حيث أثنى الله تعالى عليه، فكان مما ذكر تعالى ثناءً عليه، تعاهده لأهل بيته في قيامهم بشعائر الله، وأعظمها الصلاة والزكاة، فهذه الشعائر العظام لا مجال للتهاون فيها مع الأهل والأبناء، فهي أساس الدين، ولهذا نص الله تعالى عليها وهو يثني على نبيه إسماعيل؛ فقال: ﴿ وَكَانَ

يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴾ [مريم: ٥٥] وثناء الله تعالى على إسماعيل عليه السلام في تعاهده لأهل بيته في شعيرة الصلاة والزكاة؛ تنبيه بالغ على أهمية تعاهد الأهل، وفيها دلالة على منزلة هاتين الشعيرتين من الدين

إن مما يؤسف له تهاون أصحاب المسؤولية والرعاية على أهليهم، وعدم تعاهدهم في شعائر الدين، ولا سيما العظيمة منها، وهذا من تضييع الأمانة وغش للمسؤولية، وقد توعد عليه النبي صلى الله عليه وسلم ببالغ العقوبة ففي الحديث الذي أخرجه الشيخان: ((**ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة**)) [(١)].

ثالثاً: الأسرة والشائعات.

يكثر حديث أفراد الأسرة الواحدة فيما بينهم عن أخبار الجيران، وأحوال الأصدقاء والقرابات، يتجاذبون أطراف الحديث فيها، ويتسامرون عليها، وتطلق الألسنة من غير روية في نقل الأخبار، وربما زاد الراوي، ووهم السامع، ولا مجال للتثبت فيها، ولا للتأكد منها، فهي أحاديث الأهل والأسرة، إنما تقال تزجية للوقت، وقضاء على الفراغ، ويملؤ جو الأسرة بالشائعات والأخبار السيارة، وتصبح أعراض الناس لقمة تلوكها ألسنتهم، وفاكهة يسمرون عليها، وهذا النوع من الأحاديث

(١) أخرجه البخاري[١٤١٩ كتاب الأحكام، باب من استرعي رعية فلم ينصح] ومسلم[١/ ١١٦ كتاب الإيمان] واللفظ له.

خطر جداً، لأن ما تتداوله الألسن اليوم، على أنه حديث أسرة، وتزجية وقت، لا يبرح أن يفشو ويظهر، ويتناقله الجيران والناس، حتى يشاع وينتشر، ليكون بعد هذا من إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، وقد توعد الله تعالى الذين يشيعون الفاحشة في الذين آمنوا بالعذاب الأليم؛ وذلك أن المجتمع الذي تسري فيه مثل هذه الشائعات؛ لا يبرح أن تتقطع أوصاله، وينحل عقد رباطه.

وفي كتاب الله تعالى نموذج لمثل هذه الشائعات التي تتناقلها الأسرة حتى تذيع بين الناس، في حادثة الإفك المشهورة التي وقعت لعائشة زوج النبي صلى الله عليه والسلام الطاهرة المبرأة، حيث رُميت في عرضها الطاهر، وتناقل الناس هذه المقولة دون وعي أو إدراك، دون تبصر أو تأمل، بل حتى دون تثبت وتبين، ويالله العجب كيف جاز على قلوب المؤمنين وعقولهم مثل هذا الإفك، تُرمى به زوج النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا يصور تعالى مقدار الغفلة التي وقع فيها الناس، بقوله عز وجل: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] وتأمل هنا دقة التعبير وجمال التصوير حيث جعل تعالى تلقي الناس لخبر الإفك بالأفواه، مع أن تلقي الأخبار يكون بالأسماع؛ ليشير إلى أنه كان تلقياً خلا من الوعي لهذه المقولة، والتبصر بعاقبتها، والتأمل في حقيقتها، فالناس يتلقون الخبر بالأفواه ليغادر أفواههم مرة أخرى بلا أدنى نظر أو تعقل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يقول ابن عاشور" جعلت الألسن آلة للتلقي على طريقة

تخييلية، بتشبيه الألسن ـ في رواية الخبر ـ بالأيدي في تناول الشيء، وإنما جعلت الألسن آلة للتلقي مع أن تلقي الأخبار بالأسماع؛ لأنه لما كان هذا التلقي غايته التحدث بالخبر، جعلت الألسن مكان الأسماع... وفيه تعريض بحرصهم على تلقي هذا الخبر، فهم حين يتلقونه يبادرون بالإخبار به، بلا ترو ولا تريث... ووجه ذكر: ((بأفواهكم)) مع أن القول لا يكون بغير الأفواه؛ أنه أريد التمهيد لقوله: ((ما ليس لكم به علم)) أي هو قول غير موافق لما في العلم، ولكنه عن مجرد تصور؛ لأن أدلة العلم قائمة بنقيض مدلول هذا القول، فصار الكلام مجرد ألفاظ تجري على الأفواه"[(١)].

لقد عاتب الله تعالى المؤمنين عتاباً بالغاً بسبب تفريطهم في مكافحة هذه الإشاعة، ولما برأ الله تعالى أم المؤمنين الطاهرة عائشة رضي الله عنها من هذه المقولة وسماها إفكاً ـ وهو أشد الكذب ـ أرشد المؤمنين إلى المنهج الصحيح في التعامل مع هذه الشائعات، فقال تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور: ١٢] وهاك هذا الموقف الكريم من الصحابي الجليل الذي تمثل هذا التوجيه الكريم لما سمع تلك المقولة الإفك تسوقها إليه زوجه، روى ابن جرير: (أن أبا أيوب خالد بن زيد، قالت له امرأته أم أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله! قال: فعائشة والله خير منك)[(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير(٩/ ٤٤٩).

(٢) جامع البيان(١٩/ ١٢٩).

إنه المنهج الراشد الواعي الذي يجب أن تقتدي به الأسرة المسلمة، ومن ورائها المجتمع كله في التعامل مع الشائعات، حيث ينزل الإنسان نفسه وأهله منزلة من يُقالُ فيه ويُنقلُ عنه، أكان هو أو أهله يفعله أو يقوله، فإذا برأ نفسه وزكاها، فكيف يتهم غيره من المؤمنين.

رابعاً: الفتيان والفتيات.

الشباب زهرة الأيام، والفترة الذهبية في حياة الإنسان، تجتمع فيها كل القوى، وتتكامل فيها مختلف الطاقات؛ ولهذا فهي أشد المراحل تأثيراً على الإنسان، غير أن هذه الطاقات عندما تنطلق من غير قيد أو ضبط؛ تمسي معاول هدم وفساد، ولذا عُني الإسلام بهذه المرحلة عناية خاصة، حتى جعل السؤال عن فترة الشباب، أحد الأسئلة الأربعة التي يُسأل عنها العبد يوم القيامة، ففي الحديث الذي رواه معاذ بن حبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه**)[1].

لقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الفترة الدقيقة من حياة الإنسان، فذكر نماذج لفتيان وفتيات صالحين يعدون قدوة حسنة للشباب، فهم نماذج خير لشباب وفتيات استطاعوا أن يوظفوا طاقاتهم وقدراتهم، في جانب الخير والبناء، فكانوا نماذج مشرقة يقتدي بها الفتيان والفتيات، نشير إلى

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير(٢٠/ ٦٠) وقال في مجمع الزوائد(١١/ ٢٦٧): "رجال الطبراني رجال الصحيح، غير صامت بن معاذ وعدي بن عدي الكندي، وهما ثقتان".

ثلاثة منها:

- **يوسف وأيام المحن.**

من أبرز تلك النماذج؛ يوسف عليه السلام، فحياته كلها تمثل الأنموذج الأكمل، الذي يقتدي به الشباب، في شتى مواقف حياتهم؛ إذ كانت حياته مثالاً يُحتذى، ورمزاً يتطلع له كل من تسمو نفسه إلى العُلا، حتى جعل الله تعالى من خبره وما جرى له مع إخوته آيات بينات للسائلين، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [يوسف: ٧]

لقد تعرض لشتى المحن وأنواع البلاء، بسبب ما وقع في قلب إخوته من غَيْرة، حملتهم على الكيد له، والسعي لصرفه عن وجه أبيهم يعقوب عليه السلام، فكان ما كان من إلقائه في ظلمة البئر، لتبدأ بعد هذه الجريمة من إخوته رحلة طويلة مع أنواع الفتن والبلاء، تبدأ بهذه الظلمة الموحشة في بئر عميق، وهو غلام صغير، لينتقل بعدها إلى الرِّق وما فيه من ذل العبودية وهوانها، وهو الكريم ابن الكريم، من غير ذنب اجترحه، ولا إثم ارتكبه.

لينتقل بعد هذا إلى بيت عزيز مصر، حيث نشأ فيه ودرج، حتى بدت عليه مخايل النجابة، على ما فيه من الحسن والجمال الظاهر، وفي البيت كانت امرأة العزيز، تطالعه صباح مساء، تنظر إليه فلا يخفى عليها من أمره شيء، ترقب حركاته وسكناته، ولا تلبث أن تؤخذ به، ويأسرها جماله فتعشقه كأشد ما يكون العشق، ويستحكم الأمر حتى لم تعد النظرات اللاهثة تكفي، بل تحولت إلى دعوة صريحة: "هيت لك" وهنا يظهر موقف

الشاب الملتزم بدينه المستعلي على الشهوات: "معاذ الله"!

ألا يحق أن نتساءل لماذا هذا الصد والمنع ؟ مع كونها امرأة جميلة، قد حازت إلى ذلك السلطة، وهي سيدته، وهي الداعية، وهو غريب لا يخشى عاراً ولا شناراً، ثم هو شاب فيه كل ما في الشباب من رغبة؟ لماذا ؟ هل يخاف العزيز ؟ أبداً فهو يعرف العزيز ويعرف حاله؟ هل يخاف الخدم ؟ أبداً فالأعين نائمة والأبواب مغلقة والأماكن خالية، ثم من يجرؤ على دخول مخدع السيدة، وقد هيأته! ثم مع هذا كله يمتنع أشد ما يكره الامتناع، ويأبى كل هذا الإباء! إنه الإيمان والتقوى التي تحجز المؤمن عن الخوض في مستنقع الرذيلة، والتدنس بآثامها، إنها المراقبة الدائمة لله، فإن غَفَلَ العزيز، وسَهَا الحرس، ونام الناس، فالله حيّ لا ينام، يسمع ويرى.

وبعد هذا كله هل تنتهي هذه المحنة ؟ كلا.. لقد كشفت المرأة عن سعار الشهوة، فتهدد بالسجن، وتلوح به، بل وتلجأ إلى الإغراء من جديد، فلا تمانع من مساهمة النساء في محاولة إغراء يوسف، وإقناعه بالخضوع والاستسلام، وهنا يعظم الخطب على الفتى يوسف، وتشتد عليه المحنة، فلا يجد إلا أن يضرع إلى الله تعالى أن يقيه شر ما يجد ويحاذر: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٣ – ٣٤] "لقد اختار السجن وهذا في غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه، وجماله، وكماله، تدعوه سيدته وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال، والمال، والرياسة، ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله

ورجاء ثوابه"[١] ثبت في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺأنه قال: (**سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله... ـ وذكر منهم ـ شاب دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله**)[٢].

ينتقل الفتى يوسف عليه السلام بعد هذا من رغد عيشٍ قد اعتاده، إلى شظفٍ لم تعتده نفسه، ولم يألفه طبعه، فلا تتحطم نفسه ولا يأسى قلبه، بل يجد فيه ميداناً لنشر العقيدة والدعوة إليها، فلم يبرح غير قليل حتى مالت إليه قلوب السجناء وعواطفهم، لما توسموا فيه من الخير، وحدث أن عرض عليه اثنان منهم رؤيا وطلبا إليه أن يفسرها، وهنا يستشعر يوسف ولاءه لدينه، إن سجنه لا يعفيه من مسئولية هذا الدين، فما كان منه إلا أن جعل حاجتهما إليه مدخلاً لقلوبهما، فيؤكد لهما قدرته على تفسير هذه الرؤيا، ثم يشرع في عرض الدعوة مستغلاً إنصاتهما له ثم يخلص إلى تفسير الرؤيا.

وحدث أن رأى الملك رؤيا أعجزت الملأ عن تأويلها، وهنا يتذكر أحد الغلامين قصته مع يوسف فيذهب إليه ثم يعود إلى الملك بتأويل الرؤيا، وفي تأويل يوسف للرؤيا ما يدل على كمال خُلُقِه، فهو مع كونه قد سجن ظلماً كل هذه السنين، لم يمتنع عن تنبيههم إلى الخطر القادم، بل ويرشدهم إلى طريقة النجاة منه، ويصل التأويل إلى الملك فيعجب ويسأل

(١) تفسير القرآن العظيم(٢/ ٧٣٨).

(٢) أخرجه البخاري[١٣٢ كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة] ومسلم[٢/ ٥٩٠ كتاب الزكاة].

عن صاحبه ويرسل إليه بإطلاق سراحه، وهنا يأبى يوسف إلا أن يقف مرة أخرى موقفاً عجباً، إنه لا يريد الخروج كشخص أُدين ثم عُفي عنه، كلا فهو طاهر الثياب، ويجب أن يظهر للناس حقيقة ذلك، لقد أكبر المصطفى عليه السلام وهو خاتم الأنبياء هذا الموقف من يوسف فقال: (**يرحم الله لوطاً، لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي**)[1].

ويسير يوسف مع تقلب الأيام بين نعمة ومحنة وتسند إليه الوزارة فيصير له أمر مصر ويؤمهُ أهلها، ويأتي إخوته فيستحضر ما قد جرى منهم وما كان بينهم، والآن وقد أصبحوا بين يديه وتحت سلطانه، ألا يحق له الثأر لنفسه وقد ظُلم، وفرقوا بينه وبين أحب الناس إليه؟ ألا يحق له أن يعاقبهم وهم المعتدون ؟ كلا.. إنها النبوة، إنها الرحمة والإحسان، لقد صفح عنهم بل وزاد فوق هذا أن دعا لهم واستغفر.

ثم بعد كل هذه الأحداث المتلاحقة تتحقق رؤيا يوسف التي قصها على أبيه يوم كان فتى صغيراً، واجتمع له أهله وذووه مع عز السلطة والنفوذ، وهنا يتذكر يوسف ما مرّ به وما لاقاه، ويحس بأثر النعمة، فتتوجه نفسه وقلبه إلى ربه يحمده ويشكره، ويسأله أن يتوفاه على الإسلام مع أنه نبي الإسلام والداعي إليه، وهذا من كمال معرفته بالله تعالى:﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه[٦٩١ كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: ونبئهم عن ضيف إبراهيم] ومسلم[٤/ ١٤٦٧ كتاب الإيمان] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

وبعد.. فإن قصة يوسف عليه السلام نموذج رائع لشباب الإسلام، ومثال رفيع في التعالي على المغريات والشهوات مهما تنوعت، نموذج للشاب المعتز بدينه عن شراك الهوى، لا تزيده الفتن إلا تمسكاً بدينه، وانقطاعاً إلى ربه، لقد تقلب في فتن متعددة متنوعة بعضها كان يكفي لإسقاطه، لكن هي رحمة الله لعبده المؤمن.

إن الشاب الملتزم بدينه المستعلي بعقيدته على هذه الأدناس؛ ليشعر بالفخر والاعتزاز وهو يسير في موكب هذا النبي الكريم، موكب العفة والطهر، فما أجمل أن يكون الشاب طاهر الباطن والظاهر، في الحديث عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليست له صبوة**) [(١)].

- **أصحاب الكهف "فتية آمنوا بربهم".**

فتية ـ أيضاً ـ ضربوا أروع نموذج في الاستمساك بالحق والصبر عليه، والبعد عن الدنيا وزخرفها، والتعلق بما عند الله، حتى أنزل الله تعالى قرآناً يتلى إلى قيام الساعة، يخلد ذكرهم ويثني عليهم، ليكونوا نموذجاً يقتدي به كل الشباب الذين يضيق عليهم في دينهم، ويفتنون في عقيدتهم.

حينما يكون المجتمع وثنياً في كل صوره وجميع موروثاته، وحينما

(١) أخرجه أحمد(٤/ ١٥١) وحسنه في مجمع الزوائد(١١/ ١٧٢) وقال الأرناؤوط في تعليقه على المسند: حسن لغيره.

والصبوة: الميل إلى الهوى. ينظر اللسان، مادة: صبا.

تندرس معالم الشرائع الإلهية، ويخبو نورها، وحينما يكون المؤمنون قلة مستضعفة، لا تملك شيئاً أمام قوة أهل الأوثان المتعصبين لعقيدتهم، المستميتين دفاعاً عنها، حينها لابد من الانفصال عن هذا المجتمع والبعد عنه؛ لأن مجتمعاً ـ كهذا ـ قد طمست معالم الخير فيه، وأصبح وجود فئة قليلة تخالف هذا المجتمع في الأفكار والمعتقدات والتصورات، أصبح وجودها أمراً غير مقبول مطلقاً، لا يجوز السكوت عليه.

وحين يشعر المؤمنون المستضعفون بهذا الواقع يهدد كيانهم، ويعرضهم للفتنة والاضطهاد، فإنه لابد من الخروج عن هذا الواقع محافظة على هذا الكيان وإبقاء لجذوة الإيمان، ترى هذا المعنى بارزاً واضحاً كل الوضوح، حينما تقرأ أوائل سورة الكهف.

يشدك في قصة أصحاب الكهف أن أبطالها فتية، والفتية من طبعهم حب الدنيا ولذاتها، والاسترواح إلى مُتَعِها، غير أن من يواجهنا هنا فتية زهدوا في هذه المُتَعِ، بل رغبوا عن الأهل والمال والوطن، رغبوا عن هذا كله فراراً بعقيدتهم، ونجاة بشعلة الإيمان التي قد توأد في ظل هذا المجتمع الوثني، إنه موقف عجيب رائع استحق أهله أن تجري لهم المعجزات، وأن يُخلد ذكرهم في قرآن يتلى، ليكونوا أسوة لمن يضطهدون من أجل عقيدتهم، وصدق الله القائل: ﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴾ [الكهف: ١٣].

- **فتاتا مدين.**

نموذج رائع لفتياتنا يقتدين به، حيث قص الله تعالى خبر فتاتي مدين

مع نبي الله موسى عليه السلام، وما تضمنه خبرهما من معاني العفة والحياء، والصيانة والديانة، فلم تكن حاجتهما وغياب الرقيب عنهما؛ سبباً يحملهما على التهاون في صيانة نفسيهما، وحشمة سلوكهما.

لقد جعل الإسلام مكان عمل المرأة البيت، وجعل وظيفتها الأساس القيام على شؤون الأسرة، وحينما يكون خروجها إلى العمل خارج البيت بسبب الحاجة إلى ذلك؛ فإن الإسلام لا يمنع ذلك وفق شروط ومحترزات، تحفظ عفة المرأة وطهرها، وتبقي على خصائص الأنوثة فيها، بعيداً عن مواطن عمل الرجال، وما يستتبع ذلك من ضرر على المجتمع وأخلاقه.

وقد ضرب القرآن الكريم نموذجاً لمثل هذه الحاجة، وصور كيف تكون المرأة المسلمة مع خروجها عفيفة طاهرة يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٣ – ٢٦] فتاتان خرجتا لتسقيا غنمهما، وقد عدمتا من يقوم بهذه المهمة، وتظهر لك العفة في سلوكهما حيث تَجنبتا مخالطة الرجال ومزاحمتهما، فوقفتا هناك.. هناك بعيداً عنهم، حتى إذا قضى القوم استقتا، ويظهر لهما رجل عليه علائم القوة

والطهر، يسألهما وقد رأى من حالهما في حبس غنمها ومنعها من السقي ما أوجب سؤالهما عن ذلك، فتجيبانه بجواب مختصر لا تكسر فيه ولا تميع، ويزاحم القوم ويسقي لهما، ثم يتولى مباشرة إلى الظل، فلا يجعل تلك الخدمة طريقاً إلى التطفل عليهما واستغلالهما، ولعل هذا ما حدا بالفتاة أنه تصفه بقولها "الأمين".

وما يلبث أن تأتي إحدى الفتاتين على استحيا تمشي مشية الحرائر العفيفات، ثم تقول له بعبارة فيها أدب، إذ لم تطلبه مطلقاً لئلا يوهم ريبة: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ ﴾ عبارة موجزة تؤدي الغرض، ولا تطمع متشوفاً، ولا توهم جاهلاً.

وحينما يقدم هذا الشاب إلى الشيخ يحادثه، تختلي الفتاة بأبيها وتعرض عليه بأدب جم وحياء ظاهر أن يستأجره، وتثني عليه، ويفهم الأب مرادها، إن الفتاة الطاهرة العفيفة لا تخجل من حرصها على إعفاف نفسها في أمر فطري، لكنها في طلبها لم تلجأ إلى الطرق الملتوية، والمسالك المعوجة، بل عرضت الأمر على أبيها، بأدب وحياء جمّ.

إنه نموذج كريم للفتاة الملتزمة بدينها المحافظة على عفتها، التي تصون كرامتها، وتحفظ حيائها، حتى وإن ألجأتها الحاجة إلى الخروج من بيتها نموذج يشرف فتياتنا الاقتداء به والتأسي بصاحبته.

خامساً: المرأة.

شقائق الرجال؛ نصف المجتمع، وأساس الأسرة، وفي القرآن نماذج

رائعة للمرأة الكريمة الطاهرة، التي تنجب الأبناء الكرام، وتربي شُدَاةَ المستقبل، وفي مقدمتهم المرأة الصالحة مريم بنت عمران، حيث كانت ومنذ نشأتها فتاة متميزة بصلتها بربها، وحفاظها على طهارتها، حتى اختارها الله تعالى أُمّاً لنبيه الكريم المسيح عيسى بن مريم، ولتكون أُمّاً معجزةً لابنٍ معجزٍ، ولهذا جعلها الله وابنها آية باقية للعالمين، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] إنها نموذج للمرأة الصالحة التي نشأت منذ صغرها على حسن الصلة بالله تعالى، وتمام العبودية له، مع حفظ عفافها وطهر أخلاقها، حتى أثنى الله تعالى عليها بهذين الخُلقين خلق العبودية وخلق العفة فقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

وامرأة أخرى هي قدوة في عدم الغرور بفتنة السلطة والمال، نعني بذلك امرأة فرعون، تلك المرأة الصالحة، التي لم تُبْهِرها فتنة الزينة والجمال، كما تُبهِر غالب النساء، ولم تغرها فتنة الجاه والسلطان، كما يُغَرُّ بها جُلُّ النساء، ولهذا وجدناها تؤثر ما عند ربها على مُلك فرعون، وزينة فرعون، ومال فرعون، حتى قالت بقلب مُخْبِتٍ منيب إلى ربها: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١] ولهذا كله استحقت أن تكون من النساء القلائل الكُمّلِ، فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن**

فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) [1] لقد استحقت هذه المرأة الكريمة أن تكون مثالاً يضربه الله تعالى للمؤمنين، باقياً على مرّ العصور، بقرآن يتلى ما تعاقب الليل والنهار، يقول الله تعالى عنها وعن أختها مريم بنت عمران: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١١ – ١٢].

(١) أخرجه البخاري[٧٠١ كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: وضرب الله مثلاً..] ومسلم[٤/ ١٥٠٣ كتاب فضائل الصحابة، باب فضل خديجة].

المطلب الثالث: المجال السياسي.

الجانب السياسي في حياة الناس بالغ الأهمية، إذ معقد الأمر كله عليه، به تنتظم حياتهم، وتستقيم شؤونهم، وتصان حقوقهم، لا يمكن تصور اجتماع جماعة من الناس بغير نظام يسير شؤونهم، يعرف به كل أحد منه حقه الذي له، وواجبه الذي عليه.

وإذا ذُكرت السياسة تبادر إلى الذهن أول شيء الحكم والحكام، فهم رأس النظام السياسي، وعنوانه الدال عليه، وفي كتاب الله تعالى نماذج مشرقة لحكام ساروا في رعيتهم سيرة العدل، لم تطغهم قدرتهم، ولا غرتهم قوتهم، نقف على ثلاثة من تلك النماذج، كل نموذج منها يَشِفُّ عن جانب أساس في الحكم:

أولاً: الرجوع إلى الحق.

قل أن تجد في الناس من ينصف من نفسه، فينقاد للحق حتى لو خالف رأيه، ويرجع إليه حتى لو سلك طريقاً سواه، فكيف إذا كان ذلك من مَلِك قوله نافذ، وحكمه قاطع، وفي كتاب الله تعالى نموذج كريم، لنبي كريم، كان مثال التواضع والرجوع إلى الحق، ذلك ما كان من خبر نبي الله داود عليه السلام، يقول تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٨ – ٧٩] وفي بيان هذه الآية، والواقعة التي تضمنتها وحكم داود عليه السلام فيها، أخرج ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال:

(كَرْمٌ قد أَنْبَت عناقيده فأفسدته ـ يعني: الغنم ـ قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكَرْم، فقال سليمان غير هذا يا نبيّ الله، قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكَرْم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكَرْم فيصيب منها، حتى إذا كان الكَرْم كما كان؛ دَفعت الكَرْم إلى صاحبه، ودَفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ) [1].

إن الأوبة إلى الحق، والرجوع إلى الصواب، خُلق عالٍ شريف، تضعف عنه أكثر النفوس، وتعجز دونه أكثر الرجال، ويعظم هذا في ظل سطوة السلطة، وقوة الجاه والملك، إذ يكون الرجوع فيها إلى الحق أمراً بالغ الصعوبة قلّ من يستطيعه.

إن هذا الخبر يمثل قدوة حسنة لكل حاكم وقاض، في الرجوع إلى الحق، فالحق أحق أن يُتبع ويُرجع له، ويُصار إليه، فهاهنا داود عليه السلام ـ وهو الملك، وقبل هذا هو النبي المرسل من الله عز وجل ـ يحكم في قضية حكم حق وعدل، لا ظلم فيه، ولا يُعَاب عليه، فقد رأى أن قيمة ما أُتْلِف من زرع أصحاب العنب، يكافئ قيمة الغنم؛ فحكم بالغنم لهم، ومع هذا لم يمنعه ذلك أن يرجع إلى الحق، إلى أولى الأمرين، وأنفع القضائين، لم يجد غضاضة في نفسه أن يأخذ بحكم غيره، لما كان أولى من حكمه، وأنفع للخصمين، لم تحمله عزة الملك والسلطان، وأنفة النفس من الرجوع إلى الحق، في أمر يسوغ فيه الاجتهاد، وفي ذلك أسوة عظيمة لأهل الحكم

(١) جامع البيان(١٨/ ٤٧٥).

والقضاء، أن يكون الحق رائدهم، لا تعميهم السلطة والقوة عنه.

ثانياً: الحاكم المتواضع.

التواضع خلق كريم قل من الرجال من يبلغه، ولا سيما إذا وجدت أسباب القوة التي تطغي الرجال كالجاه والسلطان، وشخصية نبي الله سليمان عليه السلام تُمثل ـ بحق ـ نموذج الحاكم المتواضع، الذي أُعطي أسباب القدرة والقوة، حتى سخرت له الريح، وحشرت له الجنود، من الجن والإنس والطير، حتى لم يوجد مَلِك في الأرض، اجتمع له من أسباب القوة مثل ما اجتمع له عليه السلام، وخير مثال على تواضعه ما ورد في سورة النمل من خبره مع ملكة سبأ، فمع ما في هذه القصة من جوانب أخرى للقدوة: كالعدل، والحزم، واليقظة، وحسن سياسة أمور الدولة، وتدبير شؤونها، إلا أن خبر النمل وواديها، وخبر عرش ملكة سبأ يستوقفنا ملياً، لنلحظ فيهما معاني التواضع الكريم في نبي الله سليمان عليه السلام.

أما خبره مع واد النمل فقد قال الله تعالى عنه: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل: ١٧ – ١٩] هذا سليمان عليه السلام وسط جيشه، هذا الجيش الغريب الذي يتألف من فرق عجيبة من شتى الأجناس والكائنات من الجن.. والأنس.. والطير، جيش لا كالجيوش يجوب الأرض يقطعها، وقد جمع

أوله مع آخره، على نحو تنتظم به صفوفه، وتتسق فيه خطاه، فلا يضطرب ولا يختلط[1]، وفي طريقهم يمرون على واد النمل، فتصيح نملة في قومها، تحذرهم أن يقفوا في طريق هذا الجيش الجرار، فيحطمهم بأقدامه وهو لا يشعر.

حتى إذا سمع سليمان هذه الكلمات من النملة تبسم لها، تبسم من يرى صغيراً يفر منه يخاف أذاه، وهو لا ينوي به شراً، وتبسم مرة أخرى لهذه النعمة التي وهبها الله له، فجعلته على صلة بهذه الكائنات العجيبة، وهنا يتحرك قلب هذا الملك العظيم الذي أوتي أسباب القدرة والقوة، يتحرك قلبه لا فخراً وكبراً، أو غروراً وعُجباً، ولكن تواضعاً لربه، واعترافاً بفضله، يتحرك قلبه متجهاً إلى صاحب النعمة والفضل، يدعوه ويرجوه أن يلهمه شكر هذه النعمة، والقيام بحقوقها، ويسأله أن يدخله في ركب الصالحين وموكبهم، وسبحان الله! كيف يكون كمال المعرفة بالله تعالى، هذه المعرفة التي تجعل المرء لا يأمن على نفسه أن تزل به القدم، مع أنه النبي المرسل من الله، فلا يزيد على أن يسأل ربه أن يدخله في موكب الصالحين وركبهم، وهذا هو تواضع العارفين بالله تعالى، لا تزيدهم وسائل الدنيا وأسبابها إلا معرفة بالله عز وجل، وتعظيماً له.

---

(١) هذا النظام يشير إليه التعبير بلفظ يوزعون في الآية، قال ابو السعود (٥/ ١٧٧): " أي يحبس أوائلهم على أواخرهم، أي يوقف سلاف العسكر حتى يلحقهم التوالي، فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد، وذلك للكثرة العظيمة، ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف، كما هو المعتاد في العساكر".

ومثل هذا الموقف الكريم الدال على مبلغ التواضع والخشوع لله تعالى؛ موقف آخر له عليه السلام، لا يقل شأناً عن هذا، إنه خبره مع عرش ملكة سبأ، يقول تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٣٨ – ٤٠] سبحان الله! أي سلطان وقوة تبلغ هذا المبلغ العظيم! حتى إن عرش مملكة يساق له، على هذا النحو، ليكون بين يديه وتحت تصرفه في لحظات لا تجاوز إرسال الطرف ورده، لا يوجد هنا جيوش جراره ولا دماء تسال ولا حرب وضرب، وإنما طرف يرسل فلا يرتد حتى يكون العرش بين يديه، أي قدرة تبلغ هذا المبلغ، ولولا أن الله تعالى ذكرها في كتابه، ما كان المرء يظن أن في وسع أحد من البشر أن يبلغ هذه القدرة، واللافت هنا موقف سليمان عليه السلام، لم نر هنا زهواً أو فخراً أو عجباً، لم نر شيئاً من هذا، إنما رأينا سليمان يستشعر نعمة الله تعالى كلما تجددت عليه المواقف، فلا تزيده مواقف القوة والقدرة إلا تواضعاً وخضوعاً لربه، حتى لا يجر بخلده ـ وهو يرى العرش أمامه بلمح البصر ـ إلا أن يرى هذه النعمة بلاء وامتحاناً وتكليفاً، وهكذا يكون التواضع في أبلغ صوره، لم يُخدع سليمان عليه السلام بهذا السلطان والقوة، فيظنها من كسبه ليتسلط بها على الناس، بل عرف أنها من الله، وأنها نعمة أو بلاء.

ثالثاً: الحاكم العادل.

حينما تجتمع للمرء أسباب القوة، ووسائل القدرة، من قوة السلطان، وعز الملك، والتمكن من الأسباب، والأمر النافذ، والتقلب في الأرض حيثما شاء، وأنى أراد، حينها يكون العدل عزيزاً بعيد المنال، ولقد قص الله عز وجل في كتابه الكريم خبراً عجباً، وقدوة حسنة من ملك صالح، مَكَّن الله له في الأرض، فمده بأسباب القوة، ووسائل البناء والعمران، فجاب الأرض شرقاً وغرباً، وطوف بين سهولها وجبالها، يقول عز وجل واصفاً هذا التمكين: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٣ – ٨٨] إن للنصر نشوة تطغى معها النفوس، وسكرة تذهب بها العقول، وتطيش معها الأحلام، وكم تجُرّ هذه السكرة على الناس من بلاء، فتحرق نارها المحسن منهم والمسيء، لكن هذا الملك العادل، الناظر بنور الله، لا يحمله انتصاره وغلبته على إعمال سيفه في أعدائه، لم يحمله حربهم له على ظلمهم وقهرهم ـ وقد قدر عليهم ـ بل ميّز بميزان العدل بين الظالمين المعاندين، وبين المؤمنين التائبين، فأحسن إلى المحسن وعاقب المسيء[1].

(١) ذكر المفسرون أن ذا القرنين لما فتح إحدى المدن العظيمة قسم المحاربين له إلى قسمين:

أ ـ ظالم وهو الكافر، فهذا له العقاب في الدنيا والأخرى.

=

إن أصحاب القوة والسلطة إن لم تكن صلتهم بالله وثيقة، وتذكرهم لموقفهم بين يدي ربهم حاضراً في ضمائرهم، حياً في قلوبهم؛ لم يمنعهم عن الظلم مانع، ولم يردعهم عن البغي رادع.

= ب ـ مؤمن فله الإحسان في الدنيا والأخرى.

ينظر: معالم التنزيل(٥/ ١٩٩) تفسير القرآن العظيم(٣/ ١٦٧).

المطلب الرابع: المجال العسكري.

إن القوة هي أداة الحق التي تحمي أركانه، وتصون حدوده، وتزيح العوائق أمام امتداد ضيائه، والحق الذي لا قوة له لا بقاء له، إذ يخبو ضوءه، ويخفت صوته.

وتبقى الأمة مهيبة الجانب، منيعة عن أطماع الطامعين، وتطلعات الطامحين؛ إذا كانت قوتها العسكرية موفورة، واستعدادها للحرب حاضراً، وفي هذا المجال سنذكر بعضاً من النماذج المشرقة التي يقتدي بها ويتأسى بطريقتها:

أولاً: قائد وجيش.

من أبرز نماذج القدوة الواردة في كتاب الله في المجال العسكري، خبر القائد طالوت وجيشه، وقتالهم مع جالوت وجنده، حيث كشفت الآيات الكريمة، عن صفات القائد المحنك، الذي يحسن إدارة المعركة، وتهيئة الجند لها، كما يحسن معرفة أخلاق المحاربين ومعادنهم، كما يكشف ـ أيضاً ـ معادن الجند وأنواعهم، يقول تعالى ذاكراً خبر هذا القائد الفذّ مع جنده: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٧ – ٢٥١] تتحدث الآيات الكريمات عن قصة ملأ من بني إسرائيل، تسلط عليهم بعض الملوك فأخذوا ديارهم وأموالهم، ثم إنه خرج فيهم نبي مرسل من الله، فطلبوا إليه أن يقيم فيهم ملكاً يقاتلون تحت لوائه[(١)]، فبعث الله لهما قائداً اسمه طالوت، ويهمّنا هنا موقفان أبرزتهما الآيات الكريمات موقف قائد وموقف جيش:

أما القائد، فقد أشارت الآيات الكريمات إلى صفات القائد ومؤهلات القيادة فيه، فأشارت إلى صفتين بارزتين: العلم بالسياسة الحربية، والقوة الجسمية والقلبية.

إن القائد محط أنظار جنده، وعليه تتعلق آمالهم، فلابد أن يكون

(١) ينظر: جامع البيان(٥/ ٢٩١) ومعالم التنزيل(١/ ٢٩٧) وتفسير القرآن العظيم(١/ ٤٤٥) والجامع لأحكام القرآن(٣/ ٢٤٣).

مؤهلاً لقيادتهم، واستمالة قلوبهم إليه، بحيث يذعنون له، ويسلمون بأهليته لقيادتهم وريادتهم، وملاك هذا كله العلم بفنون الحرب وسياستها، والقوة البدنية والقلبية لتنفيذ ذلك، وفي الآيات الكريمة إشارة إلى بعض المواقف التي تكشف عن هذه الصفات التي تميز بها القائد طالوت:

لقد أظهر القائد (طالوت) حنكة حربية دقيقة، إذ لم تخدعه هتافات الحماس والنشوة، بل قد علم أن الجيش يحوي الغث والسمين، فكان لابد من الامتحان تلو الامتحان، حتى يصفوا الجيش فلا يبقى إلا الخلص منهم، الذين يستطيع أن يرمي بهم العدو حيث كان، فكان من ذلك أن عرضهم على النهر، ومنعهم من الشرب منه إلا أن يغترف الواحد منهم غرفة بيده فقط، ويذكر المفسرون أنه مرّ بهم عليه وقد اشتد بهم العطش[1]، فكان فشل أكثر الجند ذريعاً، ومن لم يطق صبراً على ظمأ الماء، كيف يطيق صبراً على بأس القتال.

وبعد هذا الامتحان يعرضهم على المحك الحقيقي، حينما يبرزون لأعدائهم حتى يرون الأمر على حقيقته، فينخذل كل جبان منهم أمام كثرة العدو، حتى لا يبقى بعد هذا إلا الخلص، بعد أن صفا الجيش من الشوائب والأخلاط الرديئة.

إن هذا الموقف يكشف صفة العلم بالحرب وسياستها، وفي الموقف التالي يظهر لك صفة القوة البدنية والشجاعة القلبية، ذلك أن القائد لما رأى

(١) ينظر: الإحالة السابقة.

الجيش ينسحب أفراده فوجاً إثر فوج، حتى لم يبق معه إلا قليل من الجند أمام قومٍ جبارين، لم تخر عزيمته، ولم يضعف قلبه، بل ثَبتَ هو، وثَبَّت الجيش معه، حتى تم اللقاء وكان النصر، وقتل بيده قائد جيش العدو.

أما المعنى الآخر الذي تشير إليه الآيات الكريمة من خلال هذه القصة ـ بعد أن عرضت صفات القائد ـ فهو طبيعة الجند والعسكر، حيث تشير الآيات إلى أن الجند قسمان:

جندي مخذل خائر، لا يصبر في الشدائد والمضائق، ويظهر فشله أمام الاختبار الفعلي لقدراته، وهذا الجندي الخائر؛ لا يمكن الوثوق به، ولا الاعتماد عليه في أي الظروف، حتى وإن كان العدو بمرأى العين، ويحيط بالجيش، فهذا الجندي مستعد للفرار، وترك باقي الجيش يواجه العدو، ومثل هذا ينبغي إبعاده وإقصاؤه، فوجوده يلحق بالجيش أبلغ الضرر، بما يثيره من بلبلة واضطراب، فضلاً عما قد يحدثه عند القتال من الهرب والتولي وترك الثغرات في الصف.

هذا نوع من الجند.. وقسم آخر من الجند والعسكر، ثابت القلب، رابط الجأش معتمد على الله، متوكل عليه، لا تزيده الامتحانات إلا صلابة، ولا يزيده شدة الموقف إلا إصراراً؛ لأنه يعرف مصدر النصر الحقيقي وميزان القوة الفعلي، وهنا أرع سمعك لما قالته الفئة الثابتة في جيش طالوت، حينما تكاثر المتخلفون والمخذلون، وتراجع أكثر الجيش، أمام قوة الأعداء الجبارين، وتأمل وصف الله لهم بقوله: (الذين يظنون أنهم ملاقوا الله) لم تزد هذه الفئة على أن قالت: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾
فليست العبرة بالعدد والعُدة، وإنما العبرة كلها تكمن فيما يقوم بقلب المقاتل، فالمقاتل يهزم في قلبه، قبل أن يهزمه عدوه، ولهذا لما برزوا وِجَاه العدو، ما كان منهم إلا أن اتجهوا إلى ربهم، بقلوب مُفعمة بالرجاء والأمل، وصدق التوكل عليه؛ فقالوا: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

إن هذه القصة نموذج للقائد العارف بسياسة الحروب، الخبير بأحوال الجند، الذي لا تغره الكثرة، ولا تخدعه شجاعة الأقوال، دون أن تُبلى الأفعال، كما أنها نموذج للجندي الذي يوثق به ويعتمد عليه إذا اشتدت الحرب، وعظم الكرب.

ثانياً: الغاية من القتال.

إن الله تعالى قد شرع القتال في سبيله، وجهاد أعدائه؛ لتكون كلمته هي العليا، ولتزاح كل العوائق التي تقف دون سماع الحق والانقياد له، لا ترتبط حقيقة الجهاد في سبيله بأحد من الخلق، وإن جلّ قدره، وعظم شأنه، حتى وإن كان نبياً أو رسولاً، فهؤلاء الكرام من الأنبياء وأتباعهم، مهمتهم حمل راية الحق، وتبليغ دين الله تعالى، وقتال الصادين عن سبيله، يهلك عليها أولهم، فيأخذها عنهم آخرهم، لا ينتهي الجهاد بنهايتهم بل هو ماض ما بقي حق وباطل، وهدى وضلال.

ويوم وقع بعض الصحابة الكرام، في غبشٍ علا تصورهم لهذه الحقيقة من غاية الجهاد، وذلك في غزوة أحد، لما فشا في الناس أن النبي

عليه الصلاة والسلام قد قتل، فضعفت قواهم، وتركوا قتال عدوهم[(١)]؛ لأن من كانوا يقاتلون دونه قد قتل، فلم يعد من باعثٍ على القتال، ولهذا الخلل في تصور حقيقة الجهاد، نزلت آيات من القرآن عظيمة، تتضمن عتاباً بالغاً لهم، وتقرر حقيقة الجهاد في سبيل الله وغايته، يقول تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤ – ١٤٨].

لقد تضمن هذا العتاب دعوة المؤمنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ إلى أخذ القدوة والأسوة ممن سبقهم على ذات الطريق، من الأنبياء والربانيين من أتباعهم على مرّ التاريخ، حيث صبروا على ما نالهم من عدوهم من قتل أو أسر؛ فلم تضعف لهم شوكة، ولم تلن لهم قناة، يقول تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ قال ابن جرير:" إنما عاتب بهذه الآية

(١) ينظر تفصيل هذه الحادثة في: جامع البيان (٧/ ٢٥١) ومعالم التنزيل(٢/ ١١٢) وتفسيرالقرآن العظيم(٢/ ١٢٨).

والآيات التي قبلها... الذين انهزموا يوم أُحُد، وتركوا القتال، أو سمعوا الصائح يصيح: إن محمدًا قد قتل، فعذلهم الله عز وجل على فرارهم، وتركهم القتال، فقال: أفإن مات محمد أو قتل ـ أيها المؤمنون ـ ارتددتم عن دينكم، وانقلبتم على أعقابكم؟ ثم أخبرهم عما كان من فعل كثير من أتباع الأنبياء قبلهم، وقال لهم: هلا فعلتم كما كان أهل الفضل والعلم من أتباع الأنبياء قبلكم يفعلونه إذا قُتل نبيهم، من المضي على منهاج نبيهم، والقتال على دينه أعداءَ دين الله"[(١)].

غير أن هذا الخلل في تصور حقيقة الجهاد، وإن وقع من بعض المؤمنين، فقد كان عند آخرين منهم غاية في الوضوح، غاية في البيان، واستمع لما أخرجه ابن جرير عن ابن أبي نجيح عن أبيه: (أنّ رجلاً من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار وهو يتشحَّط في دمه[(٢)]، فقال: يا فلان، أشعرت أنّ محمدًا قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل، فقد بلَّغ، فقاتلوا عن دينكم، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ ﴾[(٣)].

وتصور هذا المعنى العظيم، هو الذي جعل أنس بن النضر رضي الله عنه يقول لما رأي بعض القاعدين بعد سماعهم خبر مقتل النبي عليه الصلاة

(١) جامع البيان (٧/ ٢٦٥).

(٢) أي: تخبط في دمه واضطرب، ينظر اللسان مادة شحط.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان (٧/ ٢٥٣) وابن المبارك في الجهاد ص٩٠، والبيهقي في دلائل النبوة(٣/ ٢٤٨) مرسلاً من حديث أبي نجيح يسار المكي.

والسلام: "يا قوم، إن كان محمد قد قُتل، فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد صلى الله عليه وسلم، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء! ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل"[1].

ثالثاً: الصبر في القتال.

حينما يكون ميدان الصبر بذل النفس والمُهج؛ فلابد من صبر عظيم، يطغى على الحب الفطري للحياة، والإخلاد إلى الأرض، حتى يحمل المجاهد روحه على راحته، يبذلها برضاً وطمأنينة، مهما تكن الصعاب ومهما تكن الآلام.

وهذا المعنى العظيم استشعره صحابة النبي ﷺ؛ فضربوا نماذج رائعة من الصبر على حمل هذا الدين، والجهاد في سبيل نشره، وفي كتاب الله إشارة إلى نموذج كريم وقدوة حسنة أثنى الله تعالى عليهم، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران/ ١٧٢ – ١٧٣] لقد أثنى الله تعالى على أولئك الذين استجابوا له ولرسوله، ولكن متى كانت تلك الاستجابة؟ وعلى أي حال كانت؟ دعني أوقفك على خبر عجب في هذه الاستجابة، يذكره لنا أحد الذين نزلت فيهم هذه الآيات، فقد أخرج ابن

(١) المرجع السابق(٧/ ٢٥٥).

جرير بسنده عن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبد الأشهل كان قد شهد أحداً قال: "شهدنا أحداً مع الرسول ﷺ أنا وأخي، ورجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي أو قال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ! والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل! فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنت أيسر جرحًا منه، فكنتُ إذا غُلب حملته عُقبة، ومشى عقبة[1] حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى انتهى إلى حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال، فأقام بها ثلاثًا: الاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة" [2].. أرأيت صبراً في الاستجابة لداعي الجهاد كهذا، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

(١) أي: حملته شوطًا، وسار شوطًا. ينظر اللسان، مادة: عقب.

(٢) جامع البيان(٧/ ٤٠٠).

المطلب الخامس: مجال الصبر.

قل أن يوجد في كتاب الله خُلق عظم ثوابه، وفخم جزاءه مثل الصبر، حتى قرنه الله تعالى بأعلى مراتب الدين، وأكمل منازل الإيمان، فقرنه بالتقوى، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] وقرنه باليقين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] وقرنه بالتوكل فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢] وإنما قرنه تعالى بهذه المراتب العالية ليشير إلى أن هذه المنازل العالية من الدين لا تنال إلا بالصبر.

إن المرء لا ينال في الدنيا غايته مهما تكن، ولا يبلغ فيها أمنيته؛ بغير صبر وعزيمة، إذ هي مطبوعة على المشاق، ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] قال قتادة: " خُلِق في مشقة، لا يُلقى ابن آدم إلا مكابد أمر الدنيا والآخرة"[١].

وفي كتاب الله تعالى نماذج متنوعة يقتدي بها المؤمن في صبره على نوائب الدهر وغِيَرِ الزمان، منها:

أولاً: الصبر على البلاء.

إن البلاء والابتلاء في هذه الدنيا سنة جارية، لم يسلم منها أولياء الله

(١) أخرجه في جامع البيان(٢٤/ ٤٣٣).

وأحباؤه، بل لقد جعل الله تعالى البلاء علامة يَعْرِف بها العبد أن الله قد أحبه، ولذا كان الأنبياء أشد الناس بلاءً؛ لعظم منزلتهم عند الله تعالى، ومن لم يعرف هذا الأمر لم يفقه سنة الله تعالى، ولا عرف حقيقة التكليف، ذلك أن لله عِبادةً في الضراء،كما له أن له عبادة في السراء.

وركب الصابرين ركب شريف طويل، يأتي في مقدمهم نبي الله أيوب عليه السلام، الذي صبر على ما أصابه من البلاء العظيم(١)، حتى أصبح مثلاً يضرب على الصبر، حتى لا يذكر الصبر والبلاء إلا ويقرن به اسم أيوب عليه السلام، ولهذا امتدحه ربه عز وجل على صبره مع عظم البلاء، فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] فكان قدوة ونموذجاً رائعاً يتعزى به كل مبتلى في نفسه أو ولده أو ماله.

وحتى في شكواه ـ عليه السلام ـ من الضر الذي أصابه، كانت شكوى المؤمن بربه، المفوض إليه شأنه، الذي يعلم أن قضاء الله خير له كله، تأمله وهو يدعو ربه كيف كان دعاؤه، كيف كان أدبه مع ربه، كيف فوض الأمر إليه، فلم يسأله أن يكشف الضر عنه، لم يسأله أن يرفع البلاء الذي حل به، وإنما فوض الأمر إلى ربه الذي هو أرحم به من نفسه، يقول تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] قال أبو حيان: "وقد ألطف أيوب في السؤال، حيث ذكر نفسه بما

(١) يذكر المفسرون آثاراً كثيرة تشير إلى أن البلاء سلط على ماله وولده وجسده، على أن في بعض ما ذكروه مبالغة هي محل نظر. ينظر: جامع البيان(٢١/ ٢١١) ومعالم التنزيل(٧/ ٩٦) وتفسير القرآن العظيم(٣/ ٢٥٣).

يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب، ولم يعين الضر الذي مسه"[1] ولهذا كانت عاقبة هذا الصبر العظيم، والتفويض إلى الله، فَرَجاً ومخرجاً، فعافاه الله تعالى من كل بلاء، ورد عليه أهله وماله، بل زاده مثلهم فضلاً منه ورحمة وكرامة، ولهذا لما ختم الله حديثه عن صبر أيوب قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣] قال ابن كثير: "وجعلناه في ذلك قدوة، لئلا يظن أهل البلاء أنا فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله، وابتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك"[2].

ثانياً: الصبر على الفتنة في الدين .

ومن نماذج الصبر العظيمة على البلاء والفتنة في دين الله تعالى؛ خبر المؤمنينِ أصحابِ الأخدودِ، الذين ذكرهم الله تعالى في سورة البروج يقول تعالى ذاكراً خبرهم مثنياً عليهم معظماً جرم المعتدين عليهم: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١ – ١٠] لقد ضرب أولئك الصابرون أروع نماذج القدوة، في الصبر على الفتنة في الدين، ذلك النوع من الفتنة الذي لا يبقي على شيء،

(١) البحر المحيط(٨/ ١٨٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٥٣).

فتنة نالتهم في أموالهم وأهليهم وأنفسهم، جاء في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو يذكر خبرهم قوله : ((**فأُتي الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر! قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس! فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخُدَّت، وأضرم فيها النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه. ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أماه! اصبري، فإنك على الحق**)) (١)

إنه نموذج فريد من التضحية للدين والصبر على الفتنة فيه، إنه نموذج سامي رفيع من صور الصبر على الحق، وعض النواجذ عليه، مهما يكن الثمن غالياً، إن دين الله تعالى له تبعات ولوازم، قد يكون من تبعاته؛ ذهاب الأموال والأهل، بل وحتى الأنفس، فإذا لم يكن المؤمن على وعّي بهذه الحقيقة، أو شك أن يُفْجأ بعنف المواجهة مع أعداء الدين فيخذله إيمانُه، ويخذل الحق الذي آمن به.

ثالثاً: الصبر زمن الفتن.

في زمن الفتنة تطيش الأحلام، وتذهب العقول، ويعلو صوت الجهل على العقل، وتصير أزمّة الأمور إلى السفهاء بدلاً عن العقلاء، فتستباح الدماء، وتنتهك الأعراض، ويكثر الهرج والمرج، وينفلت زمام الأمور، ويختلط الحق بالباطل، ولا يَتَبَين المحق من المبطل، ولا الظالم من المظلوم، فما يدري الناس عَلامَ يُقاتِلون، وفيما يُقْتلون، وعندئذ لا تكون

(١) أخرجه مسلم[٤/ ١٨١٨كتاب الزهد] من حديث صهيب رضي الله عنه.

الشجاعة بالخوض مع الخائضين في الفتنة، ولا يكون الدين بالولوغ فيها، وإنما يكون الدين حقاً، والشجاعة صدقاً؛ بكف اليد عنها، وكبح النفس عن سورتها، وفوران حميتها، التي قد يؤزها بعض الحق الذي معها، وبعض الظلم الذي وقع عليها، وقّل من يُعْصمُ فلا تتلطخ يده بدم حرام، ولا تمشي رجله إلى حرام، لأن المرء يحتاج ـ في مثل هذه الحال ـ إلى كثيرٍ بل عظيمٍ من الإيمان، وعظيم من الحلم والعقل، حتى يمنع النفس من سورتها، ويكف اليد عن بطشها.

وفي كتاب الله تعالى نموذج لهذه القِّلة من الناس، القادرة على ضبط سلوكها مهما تكن الفتنة شديدة، ومنع سورة الغضب أن تطغى مهما تكن الدوافع عادلة، يقول تعالى مشيراً إلى هذا النموذج الكريم: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ – ٣١] إن هذه الآيات تشير إلى موقف كريم من ابن آدم المقتول، حينما ثارت نفس أخيه حسداً وظلماً، وبغياً وعدواً، بغير حق إلا أن الله تقبل من أخيه ولم يتقبل منه[1] في صورة ناطقة بالظلم، ذلك النوع من

(١) اختلف المفسرون في هذه القصة في أربعة مواضع:

=

الظلم الذي يَتَعَرى فيه صاحبه عن أي شبه حق، صورةٍ ناطقة بمدى الحسد الذي يعمي صاحبه، فيبغي على أخيه ابن أمه وأبيه، لا يتعدى على ماله أو بعض حقه، وإنما يزهق روحه، ويغتال حياته، فقال لأخيه يتهدده ويتوعده صراحة: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ وأمام هذا التهديد المنبعث من الحسد، الأعمى عن العواقب، يلفت الأخ نظر أخيه ـ بمنطق العقل ـ إلى أنه لم يكن سبباً في عدم تقبل الله منه، حتى يكون سبباً في بغيه وعدوانه، كما لفت نظره إلى سبب القبول حقيقة، ووعظه وذكره من طرف خفي لعله يتذكر: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ويؤكد له أنه لن ينساق في مواجهة معه، حتى لو بسط يده إليه، وشرع في قتله، في موقف حليم، وكلمات راشدة، كانت كفيلة بوأد الفتنه، وتسكين النفس، وتخفيف ثورتها، قال له: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لقد كان في مقدور هذا المقتول ـ إن لم يقتل ـ أن يدافع عن نفسه، ويرد عنها، ولكنه علم أنه مهما يفعل، ومهما يقاوم، فإنه يقابل في ذلك كله أخاه، فإن مشى، مشى إلى أخيه، وإن مدّ يده؛ مدها إلى أخيه، فاختار منع رِجْلِه، وكف يده، وحبس نفسه

= الأول: في تعيين ابني آدم، الذين وقع بينهما القتال، أكانا من صلب آدم أم من بني إسرائيل.

والثاني: في الأمر الذي من أجله قربا القربان.

والثالث: في نوع القربان.

والرابع: في سبب تقبل الله من أحدهما دون الآخر.

والآيات الكريمة أجملت في هذه المواضع الأربعة فلم تفصل، غير أنها تشير إلى حقيقة أن كل منهما قربا قرباناً لله، وأن الله تقبل من أحدهما، ولم يتقبل من الآخر، فما كان منه إلا قتل أخيه بغياً وظلماً. ينظر: جامع البيان(١٠/ ٢٠٢) ومعالم التنزيل(٣/ ٤٣) وزاد المسير ص: ٣٧٣.

عن سورة الغضب، اختار أن يلقى الله مظلوماً مقتولاً، عن أن يلقاه الله ظالماً قاتلاً: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ غير أن هذه النفس الباغية، لا تزال بصاحبها حتى طوعت قتل أخيه، وسهلته حتى قتله، ليكون من شؤم هذه الجريمة عليه؛ أن أول عقوبتها؛ ندم مرتكبها، ندمه على ذات فعله، لا على شيء آخر، هذا الفعل الذي خطط ودبر له، وحرص على القيام به، ينقلب عليه، ليكون باعثاً على الندم والحسرة في الدنيا، قبل العقوبة في الأخرى.

إنه موقف عجيب نادر أن يكون في الناس، ولهذا أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذا الخبر على الناس، حتى يعتبروا به، ويأخذوا العظة منه، ويقتدوا بخير ابني آدم، وهذا ما جاء نصاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في الخبر الذي رواه سعد رضي الله عنه أنه قال:(**إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي. قال: أفرأيت إن دخل علي بيتي وبسط يده إلي ليقتلني؟ قال: كن كابن آدم)** [(١)] .

لقد وعى هذا الدرس العظيم ـ مع شدته ومشقة العمل به ـ صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا عثمان بن عفَّان رضي الله عنه يكف يده عن ردع الذين خرجوا عليه ظلماً، بل ويأمر من معه بكف أيديهم،

---

(١) أخرجه الترمذي[٤/ ٨٣ كتاب الفتن، باب ما جاء تكون فتنة القاعد فيها..] وأحمد(١/ ١٨٥) وقال الترمذي: حديث حسن.

ويُحَرِّج عليهم في ذلك، قال أيوب السخْتياني: "إن أولَ مَن أخذ بهذه الآية من هذه الأمَّة لعثمان بن عفَّان رضي الله عنه"[1].

(١) عزاه ابن كثير في تفسيره(٣/ ٦٨) إلى ابن أبي حاتم، ولم أجده في المطبوع منه.
ينظر خبر مقتل عثمان في: تاريخ الأمم والملوك(٢/ ٦٦١) والبداية والنهاية(٤/ ١١٧).

المطلب السادس: مجالات متنوعة.

في هذا المطلب نعرض لعدد من المجالات المتنوعة التي تتضمن نماذج للقدوة الحسنة، منها:

أولاً: الصدق.

الصدق من أبرز أخلاق المؤمنين، بل هو علامة فارقة بين المؤمن والمنافق، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: (**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**)[1].

ومن نماذج القدوة في الصدق؛ ما قصه الله تعالى من خبر الثلاثة[2] الذين تخلفوا عن غزة تبوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يخرجوا للقتال، وقد ذكر الله خبرهم في سورة التوبة، وأثنى عليهم بصدقهم رسول الله في سبب تخلفهم عنه لما خرج مع الصحابة إلى لقاء العدو في غزوة تبوك، جاء في خبرهم ما رواه كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وهو أحد الثلاثة الذي تخلفوا عن الغزو أنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع من الغزو يقول: ((**فجئته فلما سلمت عليه، تبسَم تبسُم المُغضب، ثم قال: تعال. فجئت أمشى حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك، ألم تكن قد**

(١) أخرجه البخاري[١١ كتاب الإيمان، باب علامة المنافق] ومسلم[١/ ٧٨ كتاب الإيمان].

(٢) ذكرت كتب السير والمغازي أسماءهم، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع. ينظر: مغازي الواقدي ص: ١٠٧٣، وسيرة ابن هشام(٥/ ٢١٢).

ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى؛ ليوشكن الله أن يسخطك على، ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه إني؛ لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك)) [1] لقد كان موقفاً غاية في الحرج على هؤلاء الثلاثة الكرام، حرج التخلف أولاً عن رسول الله وصحابته بلا عذر، حيث لم يتخلف ـ مع النساء ـ إلا صاحب عذر أو منافق معلوم النفاق، ثم حرج الصدق مع رسول الله وهو يرى الناس يعتذرون بشتى الأعذار، ويتذرعون بمختلف الأسباب، فيقبل الرسول منهم، ويستغفر لهم، ويَكِلُ سرائرهم إلى الله، وما كان يعجزهم أن يقولوا ببعض قول أولئك المعتذرين، حتى عاب عليهم قرابتهم ترك الاعتذار ونسبوهم إلى قلة التوفيق، يقول كعب بن مالك يصور هذا الحرج واللوم من الناس له: (فقمت ـ أي بعد خروجه من عند رسول الله ـ وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا، لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به إليه المخلفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) أخرجه البخاري[٩٠٩كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك] ومسلم[٤/ ١٦٩١ كتاب التوبة] من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

قال: فو الله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسي)

ولم ينته البلاء بهم عند هذا الحرج الشديد، حتى يأمر النبي صلى الله عليه وسلم الناس كل الناس بترك كلامهم والحديث معهم، في هجران مجتمعي كامل لهم هم وحدهم، دون سائر المتخلفين المعتذرين بأوهى سبب، ويزداد الأمر حرجاً فيأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأن يعتزلوا نساءهم، وتبلغ الفتنة مداها حين يأتي كتاب من ملك غسان ـ وهو مشرك ـ يعرض على كعب بن مالك أن يلحق به ليواسيه، ويمنيه العزة والمجد والجاه.. إنها الفتنة تبلغ مداها فتضيق بهم الدنيا، وتتنكر لهم الأرض، يقول تعالى يصور هذه الحرج الذي هم فيه: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة: ١١٨] .

إنها نفوس كريمة تَقِيَّة تأبى أن تخادع ذاتها حتى لو خدعت الناس، نفوس تأبى إلا قول الصدق مهما تكن التبعات، ومهما تكن العواقب، ولهذا امتدحهم الله وأثنى عليهم، يقول تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ – ١١٩]

لقد كان صدقهم مع الله ورسوله، وشجاعتهم في قول الحق وإن كان عليهم؛ سبب نجاتهم، وقبول توبتهم، بلا وثناء الله عليهم، وهذا ما جعل كعب بن مالك يستشعر عاقبة صدقه، ومرده الحسن، يقول رضي الله عنه: (يا رسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين ابتلاه الله في صدق الحديث مذ حدثت ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، أحسن مما ابتلاني، والله ما تعمدت مذ ذكرت ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى يومي هذا كذباً وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي)[1].

ثانياً: التسليم لأمر الله.

إن حقيقة الإيمان بالله صدقاً، والتسليم له حقاً يظهر كماله وتمامه حينما يكون مراد الله تعالى وأمره يعارض هوى النفس ومشتهياتها، حين يكون أمر الله تعالى يحتاج إلى كثير من التضحية والفداء، إلى كثير من التسليم والرضا، يحتاج إلى أن يخرج المرء عن كل ثمين، ويضحي بكل عزيز، لا يستبقي لنفسه في نفسه شيئاً، بل يخرج عن كل شيء، وتلك منازل المقربين الأخيار، الْمُجْتَبَيْنَ الأبرار.

في كتاب الله نموذج لهذه الفئة من الخلق، نموذج لمثال بلغ الغاية في التسليم لله تعالى، والرضا عنه في أمره وقضائه، رضاً لم يخالطه حرج، وتسليم لم يَشُبْهُ تردد، في موقف لم تعرف البشرية أكرم منه ولا أزكى، إنه

(١) تقدم تخريجه في أول سياق قصة تخلفهم.

موقف شيخ الحنيفية إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام[1]، حين رأي إبراهيم عليه السلام في المنام ذبح ابنه، يقول تعالى ذاكراً هذا النموذج الكريم من التسليم له والرضا عنه، بادئاً بدعوة إبراهيم يقول تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٠ – ١١١] إنه موقف لا ندري فيه أيهما أعظم شأناً، موقف الأب أم الابن، غير أنك لا تشك أنهما بلغا أعلى درجات الرضا عن الله، وأرفع مقامات التسليم له.

أما الأب إبراهيم عليه السلام فيأتيه هذا الأمر لذبح وحيده، وهو المقطوع عن الأهل والقرابة، يأتيه الأمر بذبح وحيده الذي طالما تمنته نفسه، ورغب إلى ربه أن يرزقه إياه، حتى إذا تحققت له أمنيته كأحسن ما تكون، في غلام وصفه ربه بأنه حليم، وتعلقت روحه به، تأتيه رؤيا المنام بذبح ابنه، فماذا كان منه، ما الذي جال بخاطره، ما الذي دار بخلده، لم يصدر من هذا القلب السليم غير التسليم، مع كونها مجرد رؤيا، وليست وحياً صريحاً

---

(١) اختلف المفسرون من السلف رحمهم الله في الذبيح هنا أهو إسماعيل أم إسحاق عليهما الصلاة والسلام، ينظر: جامع البيان(٢١/ ٧٢) وزاد المسير ص: ١١٩١ وتفسير القرآن العظيم(٧/ ٢٧) والجامع لأحكام القرآن(١٥/ ٩٩).

مباشراً، فيستجيب لربه دون أن يتردد، أو يسأل، أو يستمهل، يستجيب في غاية الرضا والتسليم، رضاً تنطق به كلماته لابنه، وتسليم يشي به عرضه الأمر عليه كأبلغ ما تكون السكينة والطمأنينة: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ إنه لا يعرض على ابنه أن يرسله إلى موطن القتل وسفك الدماء، ولا يأمره أن يقوم بعمل يخاطر فيه بحياته، بل يعرض عليه أن يذبحه هو.. بيده هو، لم يشأ أن يأخذه على غِرّة حتى ينفذ أمر ربه، بل يعرضه عليه، ويسأله أن يتمهل ويرى رأيه فيه، لينال هو الآخر شرف الرضا عن الله والتسليم له.

ونقف هنا لنلتقط أنفاسنا قبل سماع كلام الغلام الصغير، هذا الغلام الذي وصفه ربه بالحليم وهو صغير، لنرى في جوابه أثر هذا الحلم، تنطق بها جوارحه في سكناتها وحركاتها: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب، ولكن في رضاً ويقين، ينقاد بغير تردد ولا ارتياب، مع بالغ الأدب مع الله، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال؛ ولهذا يستعين بربه على ضعفه ويسأله أن يلهمه الصبر والثبات.

حتى إذا نطق الأب وابنه بحقائق الإيمان والتسليم، جاء التطبيق والتنفيذ، لتبلغ الفتنة مداها، وليبلغ البلاء غايته، ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة، وعظمة الإيمان، وطمأنينة الرضا وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان، إن الرجل يمضي فيكب ابنه على جبينه استعداداً لذبحه، وإن الغلام يمضي معه مستسلماً لا يفر ولا يتردد، وقد وصل الأمر إلى أن يكون

عياناً، لقد أسلما، فهذا هو الإسلام، هذا هو الإسلام في حقيقته، ثقة وطاعة وطمأنينة ورضا وتسليم، وتنفيذ، وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم .

إنها ليست الشجاعة والجراءة، وليس الاندفاع والحماسة، لقد يندفع المجاهد في الميدان، يَقْتل ويُقْتل، ولقد يندفع الفدائي وهو يعلم أنه ربما لا يعود، ولكن هذا كله شيء والذي يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر، ليس هنا دم فائر، ولا حماسة دافعة، ولا اندفاع في عجلة تُخْفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص! إنما هو الاستسلام الواعي المتعقل القاصد المريد، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون، لا بل هنا الرضا الهادئ المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل!

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا، كانا قد أسلما، كانا قد حققا الأمر والتكليف، ولم يكن باقياً إلا أن يذبح إسماعيل، ويسيل دمه، وتزهق روحه، وهذا أمر لا يعني شيئاً في ميزان الله، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما، كان الابتلاء قد تم، والامتحان قد وقع، ونتائجه قد ظهرت، وغاياته قد تحققت، وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما وتسليمهما له: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ لقد أراد الله تعالى ألا يَبْقى في نفس إبراهيم وابنه من حظ النفس شيء دون الله تعالى، حتى إذا تم هذا وجادا بكل شيء وأعز شيء، جاء الفرج من الله تعالى بذبح

عظيم: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ نجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء، ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء، ونجزيهم بإقدارهم وإصبارهم على الأداء، ونجزيهم كذلك باستحقاق عظيم الجزاء!

ومضت بذلك سنة النحر في الأضحى، تخلد هذه الحادثة العظيمة التي يقتدي بها أهل الإيمان في معرفة جمال الطاعة، وعظمة التسليم، وأن الله تعالى وهو ربهم لا يريد أن يعذبهم بالابتلاء، ولا أن يؤذيهم بالبلاء، إنما يريد أن يأتونه طائعين ملبين، مستسلمين لا يتقدمون بين يديه عز وجل.

ثالثاً: التسليم للحق والانقياد له.

حينما تتضح معالم الحق، وتستبين أنواره، وتخالط بشاشته القلوب، وتذوق حلاوته الأرواح، حينها لا تقف العوائق أمام ضيائه أن يتسرب للقلوب، ولا تحجب السدُفُ ضوءه، تنقاد إليه القلوب وتهفوا إليه الأرواح، لا تملك من أمرها شيئاً، لا تلفت للظلام وأهله، تنقاد له غير حذرة من العواقب، وإن يكن فيها ذهاب الأموال، وسفك الدماء.

في كتاب الله تعالى نموذج عالٍ في التسليم للحق، والانقياد له، نموذج من طراز فريد في نوعه، فريد في موقفه، حتى استحق أن يُشاد به في كتاب الله، ليس في موضع واحد، بل في أكثر من موضع، ذلك ما كان من خبر سحرة فرعون، لما تحدى فرعونُ موسى عليه السلام، وضُرب موعد لذلك، وتولى فرعون وجمع أمهر السحرة وجاء بهم، يقول تعالى ذاكراً ما جرى بين فرعون وملائه في شأن موسى عليه السلام، وأنجع الوسائل

لمواجهتــــــــــــــه: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣٤ – ٥١] لقد جاء هؤلاء السحرة أول ما جاؤوا، وهم يطمعون في رضا فرعون عنهم، وقربهم منه، ومكافأته لهم: ﴿ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ لقد جاؤوا وهم يريدون إظهار تفوقهم في فنون السحر وطرقه، ظناً منهم أن موسى عليه السلام إنما أراد أن ينازعهم في فنهم، ويظهر تفوقه عليهم: ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ [طـه: ٦٢ – ٦٤] حتى إذا اجتمع الناس وغص المكان بالمحتشدين، بدؤوا عرض سحرهم، واثقين بنصرهم، معتزين بفرعون وسلطانه، وجاؤوا بسحر وصفه الله تعالى بأنه عظيم، أرهب كل من حضر حتى موسى عليه السلام أوجس خيفة من هول ما رأى، غير أن الله تعالي ثَبَّت رسوله، وربط على

قلبه، وأوحى إليه فألقى عصاه التي بيده: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٧ – ١١٩] نعم لقد وقع الحق وزهق الباطل، وبان دجل السحر والسحرة، ظهر الحق الذي جاء به موسى من الله تعالى، فإذا العصا التي كانت جماداً إذا بها تنقلب بقدرة الله حَيَّةً حقيقة، وإذا بها تتحرك وتسعى، لتأكل الإفك الذي صنعه السحرة، وهنا يؤخذ السحرة من هول المنظر، يؤخذون من عظم ما يرون، تلك العصا التي كانت عوداً صغيراً في يد موسى، تتحول حقيقة وليس تخييلاً، وصدقاً وليس تزييفاً، يرونها تتحول حية حقيقة تسعى وتأكل ما يلقى فيها، يرون ذلك ـ وهم أهل السحر وخبراؤه ـ فيرون الحق الذي لا تزييف فيه ولا خداع، فما يملكون أمام سلطان الحق ـ وقد أخذ عليهم قلوبهم ـ لا يملكون إلا أن يخروا ساجدين لمن أجرى هذه الآية الباهرة، والمعجزة الناطقة، يسجدون له بطريقة تدل على أنهم لم يملكوا غير هذا، لم يملكوا حتى مجرد الكلام ولا التعبير عن انبهارهم، بل يخرون ساجدين لله، ليكون فعلهم أبلغ من كل قول، وأسمع من كل بيان: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ نعم رب موسى وهارون الذي أجرى هذه المعجزة على يدهما.

لقد خَرّ سحرة فرعون لله تعالى كافرين بفرعون، كافرين بسلطانه، غير عابئين بجبروته وعذابه، سجدوا لله تعالى أمام هذه الحشود العظيمة، لا ليعلنوا هزيمتهم فقط، بل إيمانهم برب موسى وهارون، برب هذه الحيَّة

التي أكلت سحرهم وزيفهم.

إنه نموذج كريم في التسليم للحق، والانقياد له عندما ترتفع راياته، وتبين علاماته، نموذج في التسليم للحق، بعد أن تخالط بشاشته القلوب، وتسري روحه في الأرواح، لتحيا به بعد أن كانت ميِّتة لا حراك فيها.

لقد أنكر فرعون على السحرة إيمانهم بالحق، وعَجِبَ من تسليمهم له، قبل أن يأذن لهم، ناسياً أن الحق والهدى، لا يستأذن إذا دخل القلوب، ولا يخرج إذا سكن الأرواح، مهما تكن المغريات كبيرة، ومهما تكن العواقب وخيمة، غير أن الطاغية لا يدرك هذه الحقيقة ولا يشعر بها، وأنى له ذلك، فيُرْعِد ويُزْبِد ويتوعد ويهدد، يقول: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فما يزيدون على قولهم: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ لا ضير لأنه لا يمكنهم التنازل عن الحق، لا ضير لأن الدنيا ليست عوضاً عن الآخرة، لا ضير لأنهم يعلمون أن المرد والمرجع لله تعالى، ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٢ – ٧٣] لقد كان كل جريمتهم أنهم انقادوا للحق، وأسلموا له، بعد أن رأوا برهانه: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣ – ١٢٦] موقف من الثبات على الحق قلَّ مثيله، وصورة من الشجاعة في مواجهة الباطل قلَّ نظيرها.

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على المصطفى الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد كشفت هذه الدراسة عن عدد من النتائج والتوصيات، أعرضها مختصرة في النقاط التالية:

١. دلت هذه الدراسة على أن القدوة والاقتداء، سلوك له ثلاثة أركان:
   أ- المقتدِي ب ـ المقتدى به ج ـ السلوك الذي يقع فيه الاقتداء.
٢. وردت ألفاظ في القرآن الكريم، هي نظائر لكلمة القدوة، حيث تقاربها في المعنى والدلالة، وهي: الأسوة، والإمام، والإتباع، والمثل.
٣. إن سلوك الاقتداء والتأثر بالمحيط؛ سلوك فطري، نابع من أصل تكوين الإنسان، لا يمكن للمرء أن يسلم منه؛ لأنه يصادف رغبة ملحة تدفع البشر جميعاً ـ مهما كانت أعمارهم، أو مستوياتهم العلمية ـ إلى سلوك الاقتداء والتقليد لغيرهم، وإن اختلفت درجات التأثر والاقتداء.
٤. تبين لنا من خلال هذا البحث أهمية القدوة الحسنة، وأثرها البالغ على الأفراد والمجتمعات، ويظهر هذا في أمور، منها:
   أ- نشر القيم.
   ب- إعطاء الدليل العملي.
   ت- إعطاء التطبيق العملي الصحيح للسلوك.
٥. أبانت هذه الدراسة عن أن الاقتداء، يدخل في مجالات الحياة كلها، وميادينها جميعاً، لأن حقيقة سلوك الاقتداء؛ قائم على معنى المتابعة

والتأثر بالمقتدَى به، في سلوكه وأفعاله، والإنسان له في كل حالة سلوكٌ وأفعالٌ، ربما كانت محلاً لتأثرِ الناس واقتدائهم بها.

٦. كشفت هذه الدراسة أن نماذج القدوة الحسنة في القرآن الكريم كثيرة متنوعة، يصعب الإحاطة بها؛ فكل الشخصيات والقصص التي ذكرت في القران الكريم، التي تمثل جانب الخير، سواء كانوا أفراداً أو جماعات، رجالاً أو نساءً، هي في الحقيقة نماذج للقدوة الحسنة، وهذا يكشف لنا أحد أهم جوانب فوائد قصص القرآن الكريم، لأن الله تعالى إنما ذكرها لأخذ العبرة منها، والاقتداء بالمحسنين من أهلها.

٧. يجب أن يكون سلوك الاقتداء عن وعي وإدراك، وليس مجرد تقليد؛ لأن الله لما أمر بالاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ قال بعد ذلك: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ والرجاء لا يكون إلا بقصد وإدراك.

٨. جاءت آيات القرآن الكريم داعية إلى أخذ القدوة والأسوة الحسنة بطريقين: الطريق الأول: الدعوة الصريحة لأخذ القدوة: كالأمر بالاقتداء. الطريق الثاني الدعوة غير الصريحة: كالثناء على صفات القدوة وأفعاله.

٩. ترجع أصناف القدوة إلى صنفين؛ الأول: الأنبياء. الثاني: الصالحون من أتباع الأنبياء، فإما الصنف الأول فالأصل أن الاقتداء به مطلق، إلا أن يرد ما يستثني هذا، كما في قصة إبراهيم مع أبيه، وقصة يونس عليهما السلام، وأما من عداهم فإن الاقتداء بهم مشروط بأن يكون في جانب الخير.

على أن الاقتداء قد يخرج عن هذا ليكون ذات الكتاب المنزل من الله تعالى إماماً يقتدي به الناس، وهذا ما يقرره قوله تعالى: ﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.

كما أن المقتدَى به وإن يكن في الأصل أعياناً مشاهدة، يُقتدى بها ويتابعها الناس على سلوكها؛ فربما يتوسع الأمر حتى يصير السلوك بذاته، ومجموع العادات؛ قدوة للناس، بغض النظر عن أعيان أصحابها، وفي قوله تعال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ إيماء لهذا المعنى، حيث جعل تعالى محل الاقتداء مجموع الهُدى الذي كان عليه الأنبياء.

وهذا المعنى يؤسس قاعدة يمكن تلخيصها بأن يقال: إن كل سابق في الخير؛ هو قدوة لمن جاء بعده، وكل من سار على نهج من سبقه، وجرى على طريقته؛ فهو مقتد به.

١٠. تضمن البحث ذكر عدد من صفات القدوة؛ وهي ترجع إلى معنىً كلي ينتظمها جميعاً، وهو العبودية لله تعالى، ونعني بها العبودية التامة، المتضمنة كمال الخضوع والانقياد، والتجافي عن كل مظاهر الشرك، غير أنه يحسن التنبيه على عدد من النقاط تتعلق بصفات القدوة:

أ- أن تلك الصفات هي في أرفع درجات الصفات وأكملها، ولا يعني أن عداها من صفاتهم الحسنة ليست محلاً للقدوة والتأسي.

ب- أن هذه الصفات التي أشرنا إليها في هذا البحث؛ هي في أعلى درجات الكمال الإنساني، وقليل من يدرك أعلاها، ولهذا فأهلها يتفاوتون فيها، وعندئذ فيكفي أن تكون معياراً لصفات القدوة الحسنة، فبقدر ما في المرء منها؛ يكون التأسي به.

ت- أنه ليس بلازم أن يكون الأسوة الحسنة مُبَرأً من كل عيب، سالماً من كل نقص، دل على ذلك استثناء استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه، فلم يجعله الله محلاً للأسوة.

١١. كان التركيز في القرآن الكريم على السلوك الذي هو محل الاقتداء، دون شخصيات القدوة ذاتها، يؤكد هذا أن آيات القرآن الكريم وهي تعرض تلك النماذج لا تشير ـ في غالب الحال ـ إلى اسمها، أو مكانها، أو زمانها، وإنما يكون الاهتمام بمواقفها مجردة عن زمانها ومكانها، حتى يكون الاعتبار بالمواقف، بعيداً عن شخوصها زماناً ومكاناً، ما لم يكن لذكرها أثر.

١٢. وأخيراً فقد ظهر من خلال البحث أن القرآن الكريم كما تحدث عن جانب القدوة الحسنة؛ فقد تحدث عن الجانب الآخر، وهو القدوة السيئة، وهو جانب جدير بالبحث والدراسة ولهذا فالباحث يوصي بأن يدرس جانب القدوة السيئة في ضوء آيات القرآن الكريم دراسة علمية مستقلة.

هذا وأسأل الله تعالى الكريم، البر الرحيم، أن يجعل هذا العمل خالصاً له سبحانه، مقرباً مرضاته، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

- أحكام القرآن أحمد بن علي الجصاص محمد الصادق قمحاوي دار إحياء التراث، بيروت، ط١٤٠٥هـ
- الإحكام في أصول الأحكام، علي بن أحمد بن حزم، مطبعة السعادة، ط١ ـ ١٣٤٥هـ
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب العزيز، محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث، بيروت ط: بدون
- أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبد الرحمن النحلاوي، دار الفكر، بيروت، ط٢.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، محمد الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١٤١٧هـ
- البداية والنهاية، أبو الفداء ابن كثير، أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الريان، القاهرة، ط١ـ ١٤٠٨هـ
- تاج العروس ، محمد مرتضى الزبيدي، الكويت/ ١٩٦٨م.
- تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت ط: بدون
- التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور.
- التفسير البسيط، علي بن أحمد الواحدي.

- مجموعة من المحققين بإشراف جامعة الإمام، مطابع جامعة الإمام ط١ ١٤٣٠هـ
- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الرياض.
- تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، عبد السلام هارون، المؤسسة المصرية، مصر
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان عبد الرحمن بن محمد السعدي مؤسسة الرسالة، بيروت ط٢
- جامع البيان في تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، أحمد شاكر، الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ
- الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ، محمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام، الرياض ط١ ـ ١٤١٧هـ
- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، محمد الحفناوي، دار الحديث، القاهرة ط١ ـ ١٤١٤هـ
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت ط١٤١٤هـ
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت

- زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي الجوزي، زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١ ـ ١٤٢٣هـ
- سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني، محمد مصطفى الأعظمي، شركة الطباعة، الرياض، ط٢ ـ ١٤٠٤هـ
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، صدقي العطار، دار الفكر، بيروت ط١٤١٤هـ
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، صدقي العطار، دار الفكر، بيروت ط:١٤١٤هـ
- سنن النسائي، أحمد بن شعيب النسائي، المكتب الإسلامي لتحقيق التراث، دار المعرفة، بيروت ط٢ ـ ١٤١٢هـ
- السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري، مصطفى السقا وآخرون، دار الخير، بيروت، ط١ ـ ١٤١٢هـ
- شرح صحيح مسلم، يحي بن شرف النووي، دار الكتب العلمية، بيروت ط: بدون
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، ترقيم محمد فؤاد، دار بن حزم، بيروت ط١ ـ ١٤١٦هـ
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، ترقيم محمد فؤاد، دار الريان، القاهرة، ط١ ـ ١٤٠٧هـ

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ط:١٤٠٣هـ
- القاموس المحيط، مجد الدين محمد الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢ ـ ١٤٠٧هـ
- كاريزما السلم الوظيفي، عمر أبو عاذرة، دار الخليج للنشر والتوزيع،عمان
- لسان العرب، ابن منظور، أمين محمد عبد الوهاب وآخرون، إحياء التراث، بيروت ط٢ـ ١٤١٧هـ
- مجمع الزائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤١٢هـ
- مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب الأشبيلي، عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ـ ١٤١٣
- المحرر في أصول الفقه، محمد بن أحمد السرخسي، دار المعرفة، بيروت
- المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر الرازي، طه جابرالعلوان، جامعة الإمام، الرياض، ط١ ـ ١٣٥٧هـ
- المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن سيده، مصطفى السقا،

مكتبة مصطفى البابي، القاهرة ط١ ـ ١٩٥٨م

- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، دار الفكر، بيروت ط٢
- المستصفى في علم أصول الفقه، محمد الغزالي، محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت ط١ ـ ١٤١٣هـ
- المسند، أحمد بن حنبل، دار الفكر، بيروت.
- معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، خالد عبد الرحمن وآخرون، دار المعرفة، بيروت.
- المعجم الكبير، سليمان الطبراني، حمدي السلفي، ط:١٩٨٠م
- معجم مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد الأصفهاني، دار الفكر، بيروت،
- المغازي، محمد بن عمر الواقدي ،مارسون جونسون، ط٣ ـ ١٩٨٤م
- مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت ط١ ـ ١٤١١هـ